الصهيـونـيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقاربات فلسطينيّة

ندين روحانا عرين هوّاري
محرّران

مدى الكرمل
المـركـز العـربـي للـدراسـات الاجتماعية التطبيقية

الصهيونيّة والاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات فلسطينيّة
تحرير: نديم روحانا وعرين هوّاري

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari

التدقيق اللغويّ: حنّا نور الحاجّ
التصميم: أمل شوفاني
مسؤولة النشر والإنتاج: إيناس خطيب

لوحة الغلاف: "استيطان" للفنان الفلسطينيّ نبيل العناني.
نبيل العناني: فنان تشكيليّ، وُلد في قرية اللطرون (فلسطين) عام 1943.

ISBN: 978-965-7308-28-8
© كل الحقوق محفوظة 2023
مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة
شارع هميچينيم (الملك جورج) 90، حيفا
هاتف: 048552035، فاكس: 048525973
www.mada-research.org
mada@mada-research.org

المحتويات

5 **المقدّمة**
ندیم روحانا وعرین هوّاري

19 **الباب الأوّل: الاستعمار الاستيطانيّ: مقارَبات نظريّة**

21 المقاومة الفلسطينيّة ومعضلة الشرعيّة لدى الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين: الصهيونيّة تردّ بالسرديّات الدينيّة
ندیم روحانا

57 جدليّة الاستيطانيّ والاستغلاليّ في بنْية الاستعمار الإسرائيليّ: الأراضي المستعمَرة عام 1967 نموذجًا
أحمد عزّ الدين أسعد

83 قراءة مقارِنة بين الحالتين الاستعماريّتين في فلسطين والجزائر
أباهر السقّا

119 الكولونياليّة الاستيطانيّة في السياق الإسرائيليّ _ الفلسطينيّ، تفكيك الاستعمار، وعلم اجتماع إنتاج المعرفة في إسرائيل
أريج صبّاغ خوري

173 بنيامين نتنياهو وإعادة إنتاج المشروع الصهيونيّ ضمن منظومة صراع الحضارات
مهنّد مصطفى

193 **الباب الثاني: السياسات الاستعماريّة الاستيطانيّة للمشروع الصهيونيّ**

195 الاقتصاد السياسيّ تحت النظام الكولونياليّ ونشوب ثورة 1936
محمود يزبك

221 البحث عن الجولان التوراتيّة: مُخيّلات يهوديّة وتأسيس الجغرافيا الاستيطانيّة في القرن التاسع عشر
عامر إبراهيم

249 سياسات نزع الطفولة ("اللا_طفلنة"): تعقُّب آثار الكولونياليّة الإسرائيليّة
نادرة شلهوب كيفوركيان

285 السياسة الحيويّة للمحو الطبقيّ الفلسطينيّ في سوق العمل الاستعماريّ
سراب أبو ربيعة قويدر

305 **الباب الثالث: في فاعليّة المستعمَر**

307 السيّدة كيرن كَييمت: تَشكُّل هُويّات رجوليّة فلسطينيّة
في ظلّ الحكم العسكريّ
عرين هوّاري

341 مفهوم التطبيع ضمن بنْية الاستعمار الاستيطانيّ في فلسطين
ما بين ثنائيّة الرفض والقبول
مَي البزور

387 الاستعمار الاستيطانيّ ومهجَّرو المدن الفلسطينيّة:
ما بين المدن المهجَّرة ومدن المهجَّرين
هبة يزبك

419 الذاكرة كموقع مقاومة: تحرير التاريخ من أَسْر حاضر مستعمَر
أميرة سِلْمي

447 المشروع الاستيطانيّ الصهيونيّ في الأغنية الشعبيّة السياسيّة:
قراءة في الشفاهيّة الفلسطينيّة الثوريّة 1917-1952
قَسَم الحاجّ

483 المساهِمون

البحث عن الجولان التوراتيّة: مُخيّلات يهوديّة وتأسيس الجغرافيا الاستيطانيّة في القرن التاسع عشر

عامر إبراهيم[1]

في الثالث من شباط عام 1919، حضرت المنظّمة الصهيونيّة العالميّة مؤتمر الصلح الذي عُقِدَ في باريس. خلال المؤتمر، وبالتزامن مع هجرة آلاف اليهود إلى فلسطين، عرضت المنظّمة علنًا وللمرّة الأولى مقترحَها لحدود "أرض إسرائيل" التي شملت شرقيّ نهر الأردن، ووصلت إلى عمّان ودرعا، كما ضمّت الجولان ومركزه القنيطرة (انظروا الرسم التوضيحيّ 1).[2] كانت فلسطين آنذاك قد أصبحت مرسومة جغرافيًّا، لأنّها كانت مشروع المَسح الأساسيّ التابع لصندوق استكشاف فلسطين في لندن، والذي أُسّس عام 1865 بغية "التحقيق في علم الآثار والجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ الطبيعيّ لفلسطين" (Abu El-Haj, 2001, p. 22)، والذي لا زال يُنشَر عنه حتّى اليوم مجلّة علميّة ربع سنويّة. ليس هذا فحسب، بل إنّ فلسطين كانت المشروع المركزيّ للصندوق من حيث أهمّيّتها في "تسليط الضوء على ماضي المنطقة التوراتيّ" (Besant, 1895, pp. 11-12). الترسيم الجغرافيّ للخرائط، والمسح الأثريّ، والهجرة اليهوديّة، جميعها أنتجت فلسطين لا حاضرًا فحسب، بل ماضيًا كذلك. على الرغم من الأدبيّات النقديّة التي وثّقت التقاطعات التاريخيّة لنشوء التصوّر الجغرافيّ لفلسطين كجزء من النظام الاستيطانيّ الصهيونيّ والقوميّ، نادرًا ما كانت منطقة الجولان (وهي اليوم جزء مركزيّ لهذه المنظومة الاستيطانيّة) موضعَ دراسة. فهنالك بالطبع دراسات يهوديّة وإسرائيليّة معاصرة اتّخذت من الجولان مسرحًا لإنتاج أدلّة علميّة بشأن الآثار اليهوديّة والتحقيق في علاقتها بالماضي الجغرافيّ القوميّ (على سبيل المثال: نايشطط، 1969). كذلك ثمّة بعض الدراسات العربيّة التي حقّقت في تاريخ الجولان خلال الحقب التاريخيّة المختلفة، وعلى وجه التحديد العثمانيّة والسوريّة (على سبيل المثال: باغ، 1983/1958؛ خلف، 2006). بَيْدَ أنّه حتّى اليوم لم تُعْرَض قراءة تاريخيّة ناقدة للجولان وعلاقة تَبَلْوُره في المخيّلة والجهود الاستيطانيّة لدى الجماعات اليهوديّة التي سبقت الاستيطان الصهيونيّ الرَسمي. الأسئلة التي سيحاول هذا

1. شكر خاصّ للمؤرّخ آدرين ذكر وللباحث وائل طربيه على قراءتهما النقديّة خلال مراحل البحث الأولى.

2. يوثّق مارك تِسلِر في كتابه أمرين مهمّين تربط بينهما صلة متينة. الأوّل أنّ هجرة اليهود إلى فلسطين خلال الحرب العالميّة الأولى (حتّى عام 1918) كانت في تراجع مُتزايد، وأنّ حيويّة مشروع البِشوف العبريّ كانت مسألة يسودها الشكّ. مع مطلع العام 1919 (ولمدّة خمس سنوات متتالية)، أخذت الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين في الازدياد، وبلغت أعداد المهاجرين نحو 9,000 في المعدّل سنويًّا (Tessler, 1994, p. 170). أمّا الأمر الثاني، فهو الادّعاء التاريخيّ الذي عرضته المنظّمة الصهيونيّة العالميّة، والذي كان دائمًا يشمل شرقيّ نهر الأردن (Ibid, p. 162).

الفصل الإجابة عنها هي كالتالي: ما هو الظرف التاريخيّ والمادّيّ الذي سبق ومكّن من إدراج الجولان في الخريطة الرسميّة لمنظّمة الصهيونيّة العالميّة؟ ما هي الجهود المعرفيّة التي جعلت من الجولان ممكنًا في المخيّلة الاستيطانيّة لدى الجماعات اليهوديّة؟ وأخيرًا، ما هو دَوْر بعض السرديّات التوراتيّة في تعزيز المعرفة العلميّة المنتَجَة؟[3]

يسعى هذا الفصل إلى العودة إلى المحاولات اليهوديّة الأولى التي أسّست لتبلور الجولان كجغرافيا استيطانيّة في المخيال الصهيونيّ، وكذلك يقرأ تراكماتها حتّى بدايات الانتداب البريطانيّ على فلسطين مشدِّدًا على التقاطعات الحميمة بين الظرفين السياسيّ والدينيّ فيها. فبغية فهم العوامل التي جهّزت الأرضيّة لإسرائيل لاحتلال الجولان عام 1967، علينا أوّلًا العودة إلى جذور المحاولات الاستيطانيّة اليهوديّة فيه، والبحث في الأسباب والمبرّرات التي دفعت بهذه المحاولات قُدُمًا وصاغت أهدافها حتّى قبل التأسيس الرسميّ للحركة الصهيونيّة، وكذلك الإشارة إلى دَور المخيال الدينيّ التوراتيّ في خطابه بشأن الأرض والعودة إليها، إضافة إلى طابع الاستكشاف المعرفيّ الاستعماريّ الذي اتّخذته في آليّاتها. هكذا يقرأ الفصل التراكمات التاريخيّة التي جعلت من احتلال الجولان مُمكنًا، بدلًا من النظر إلى الاحتلال على أنّه نقطة البداية لقراءتنا الحاضر الاستعماريّ هناك. لتحقيق هذا الغرض، أتطلّع في هذا الفصل إلى عرض الجولان في المحاولات الاستيطانيّة اليهوديّة تاريخيًّا بين مطلع القرن التاسع عشر، وتحديدًا منذ تعيين القنصل البريطانيّ الأوّل في القدس عام 1838، حتّى مطلع القرن العشرين وظهور الجولان جغرافيًّا كجزء من الخطاب الصهيونيّ الرسميّ، حين عرضت الحركة الصهيونيّة رؤيتها "لأرض إسرائيل" في مؤتمر الصلح في باريس عام 1919، الذي من على منبره نُشرت بعض خرائط رسميّة تضمّ علنًا وللمرّة الأولى مناطق الجولان وحوران. بكلمات أخرى، هذا الفصل هو ليس فصلًا عن تاريخ الجولان بقدر ما هو فصل عن تاريخ الرؤيا اليهوديّة

3. قبل أن أدخل في صُلب الموضوع، أودّ أن أضع أمام القارئ والقارئة مُلاحظتين تَمهيديّتين من شأنهما أن تحدّدا بشيء من الوضوح مقاصد هذا البحث. أوّلًا، يعرض الفصل أدناه حِقبًا تاريخيّة مختلفة في الجولان، معظمها تتبع لفترة ما قبل نشوء خطاب صهيونيّ رسميّ عالميًّا. وبذلك، فإنّ الشخصيّات والوكالات التي سآتي على ذِكْرها في ما يلي لم تُنتِج بالضرورة خطابًا واضحًا مُناشِدًا بإقامة دولة قوميّة يهوديّة جامعة ذات طابع سياديّ، وكذلك لم تعمل بالضرورة ضمن إطار صهيونيّ إيديولوجيّ واضح، إنّما باستطاعتنا الادّعاء أنّ تحقيق نوع ما من الحكم الذاتيّ (وإن كان ذاك بتشكيل سيادة يهوديّة محلّيّة فقط) كان المحرّك الدائم للاهتمام بالجولان ولمحاولات الاستيطان اليهوديّ هناك في تلك الفترة. بعبارة أخرى، وضمن السياق الذي يطرحه هذا الفصل، أرى أنّه ثمّة حاجة إلى التمييز بين الاستيطان اليهوديّ من جهة، وذلك الصهيونيّ من جهة أخرى. وبينما استخدامي لمصطلح "الاستيطان اليهوديّ" سيكون لغرض الإشارة إلى المحاولات اليهوديّة الأولى بتشكيل تواجد مكثّف ولربّما سيادة محلّيّة في الجولان، سيأتي استخدامي لمصطلح "الاستيطان الصهيونيّ" للإشارة إلى ما أتى لاحقًا وانبثق عن المنظّمة الصهيونيّة ومشروعها الرسميّ بقيام دولة للشعب اليهوديّ. أمّا الملاحظة الثانية، فهي تخصّ على نحوٍ أساسيّ التقاطعَ الجغرافيّ بين فلسطين والجولان، أو -بعبارة أدقّ- التشكُّل الجغرافيّ للمشهد الاستيطانيّ في الجولان في ظلّ السياق الاستعماريّ الأوسع لفلسطين. ففي الأجزاء الأولى من الفصل أدناه، يغلب التركيز على المَشاهد والسياسات الجغرافيّة في شمال فلسطين، وعلى وجه التحديد مناطق صفد وطبريّا، والتي شكّلت -كما سيتّضح لاحقًا من خلال النصّ- أساسًا سياسيًّا ومعرفيًّا للفاعلين في ما بعد للنظر إلى الجولان كوجهة استيطانيّة.

الصهيونيّة له. وعلى الرغم من أنّ الأحداث التي نتقصّى وقوعها كانت قد حدثت منذ فترة بعيدة نسبيًّا، فإنّها لا زالت جوهريّة لنا لأسباب راهنة إلى حدّ بعيد في الوقت الحاضر.

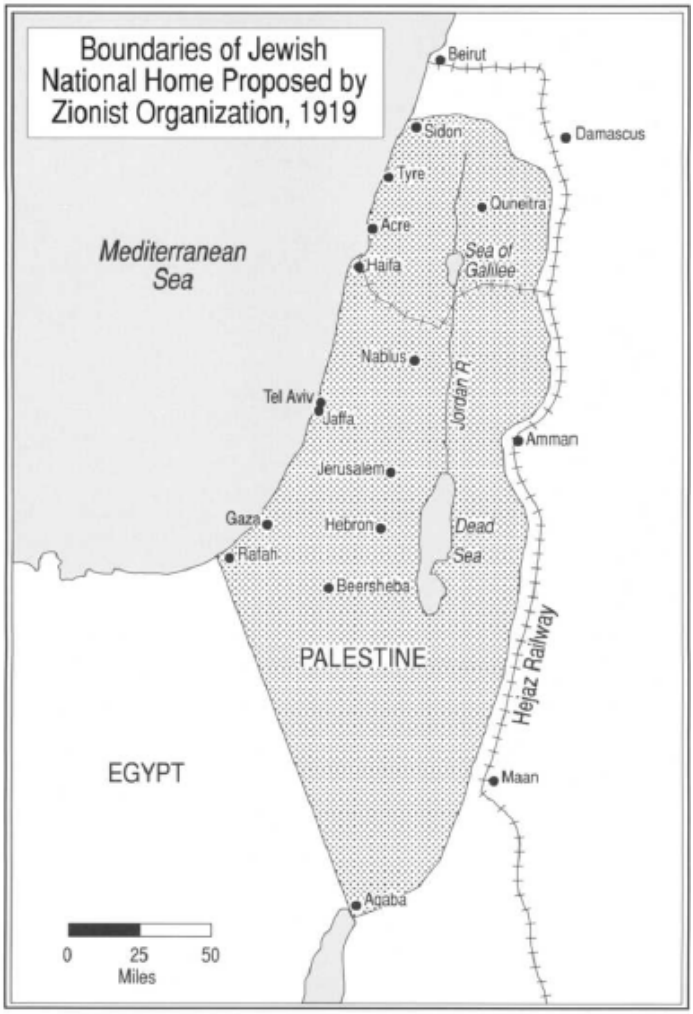

الرسم التوضيحيّ 1 – خريطة بعنوان "المشروع الصهيونيّ في فلسطين" (تضمّ الجولان)، عرضتها المنظّمة الصهيونيّة العالميّة بشكل علنيّ وللمرّة الأولى في مؤتمر الصلح الذي عُقدَ في باريس في الثالث من شباط عام 1919 (Tessler, 1994, p. 163).

ينقسم هذا الفصل إلى أربعة أجزاء. يبدأ الجزء الأوّل بتقديم سياق عامّ للاهتمام البريطانيّ تجاه الجاليات اليهوديّة في فلسطين في مطلع القرن التاسع عشر، واتّباعها ما سُمّي بسياسات "حماية الأقلّيّة اليهوديّة في المنطقة" كواحدة من إستراتيجيّاتها لتحقيق أطماعها الاستعماريّة كدولة عظمى في فلسطين في ظلّ الإمبراطوريّة العثمانيّة. ثمّ يركّز على الظروف التي وفّرها هذا السياق في تقاطع المصالح ونشوء علاقات بين السياسيّين والمسؤولين البريطانيّين في المنطقة وكبار الأثرياء اليهود البريطانيّين (كموشيه مونتِفيوري على سبيل المثال)[4] الذين عملوا من أجل تحقيق الحلم الصهيونيّ الكامن في "عودة" اليهود إلى فلسطين والاستيطان فيها. أمّا الجزء الثاني فيركّز على الانتقال من سياسات حماية اليهود في فلسطين، إلى محاولات فعليّة لشراء الأراضي لهم بغية الاستيطان فيها، ويتطرّق تحديدًا إلى اليهود في منطقة صفد، والذين لهم دَوْر جوهريّ في التأسيس للاستيطان في الجولان لاحقًا. الجزء الثالث يُمَوْضِعنا في منتصف القرن التاسع عشر، ويركّز بدايةً على تأسيس "صندوق استكشاف فلسطين" في لندن كمؤسّسة بحثيّة علميّة لبحث فلسطين أسّست لمرحلة تاريخيّة من البحث والاستكشاف المعرفيّ الإمبرياليّ لفلسطين عامّةً، بما فيها الجولان. تميّزت هذه المرحلة بالدور المركزيّ الذي قام به عدد من المهندسين والتقنيّين والشركات العلميّة والبحثيّة والسياحيّة التي أنتجت بدَوْرها خرائط ومُسوح وَصفيّة تفصيليّة للجولان، وحاولت ربطها بالتاريخ التوراتيّ. يتيح لنا هذا الجزء على وجه التحديد الانكشافَ على السُّبُل التي شكّلت فيها المعرفة الإمبرياليّة والحضور الأجنبيّ للمعاهد والبحوث المختلفة التي وضعت الجولان نُصْب أعينها تمهيدًا للاستعمار الاستيطانيّ والعسكريّ الإسرائيليّ الفعليّ لاحقًا. أمّا الجزء الرابع والأخير، فيبحث في الأشكال المختلفة للمحاولات الاستيطانيّة الثلاث المتتالية التي حاولت خلق وجود يهوديّ محلّيّ مُكثَّف، والتي خرجت معظمها من منطقة صفد انطلاقًا للاستيطان في ثلاثة مراكز في الجولان: الرمثانيّة؛ حوران؛ البطيحة. من خلال الفصل بعامّة، سنرى أنّ محاولات الاستيطان تلك ما كان لها أن تُصبح ممكنة آنذاك لولا الظروف والتراكمات التاريخيّة التي سبقتها وأسّست لها.

4. موشيه مونتِفيوري (1784–1885): كان زعيم اليهود في بريطانيا، وأشغل منصب قاضٍ أعلى هناك، وكان أحد المقرَّبين للبلاط الملكيّ البريطانيّ. حارب من أجل تحقيق مصالح لليهود وزيادة في تحسين أحوالهم في بريطانيا وخارجها حيث لبريطانيا تأثير. ويُعتبر مونتِفيوري أحد الداعمين المركزيّين لمساعي الاستيطان اليهوديّ في المنطقة، والذي شكّل أساسًا للاستيطان الصهيونيّ في فلسطين لاحقًا. وُلِد عام 1784 في إيطاليا لعائلة يهوديّة عريقة يعود أصلها إلى إسبانيا، وعُرف عنه أنّه قدّم مساعدة ماليّة كبيرة إلى الحكومة البريطانيّة، بعد أن اضطُرّت هذه الأخيرة إلى دفع تعويضات لعمّالها في المستعمرات التي كانت خاضعة لها ونالت تحريرًا من العبودية بالنسبة للعمل والعمّال. زار فلسطين سبع مرّات، كانت الأخيرة من بينها في العام 1875 حين كان في التسعين من العمر، وكانت رغبته في جعل الاستيطان اليهوديّ في فلسطين قوّة إنتاجيّة في الزراعة والحِرف اليدويّة. ولتحقيق هذا الغرض، أنشأ مستشفيات وعيادات ومؤسّسات للإحسان والدعم، واشترى أرضًا في يافا جعلها بيّارة للحمضيّات لتوفير أماكن عمل لليهود. وأقام أوّل حيّ سكنيّ خارج أسوار القدس عُرِفَ بحيّ "شَأْنانِيم". وحين بلغ المئة من العمر، كرّمته حركة "محبّو صهيون" ("حوفِڤي تْسِيون") في مؤتمرها العامّ في مدينة كاتوڤيتش في پولندا بتأسيس صندوق لدعم المستوطنات في فلسطين باسْم "ذكرى موسى" ("مزِكْيرِتْ موشيه") (المسيري، 2003).

بريطانيا الاستعماريّة وسياسات حماية اليهود في فلسطين – السياق الأوسع للاستيطان اليهوديّ في الجولان

عندما فرضت فرنسا وروسيا حمايتهما للمسيحيّين الكاثوليك والأرثوذوكس على التوالي، أعلنت بريطانيا حمايتها للدروز والپروتستانت واليهود في سوريا وجبل لبنان وفلسطين. كذلك كانت الدول الغربيّة قد فرضت على الإمبراطوريّة العثمانيّة ما عُرِف "بالامتيازات الأجنبيّة"، بحيث بات المقيمون الأجانب بمثابة دولة داخل دولة لا تسري عليهم القوانين العثمانيّة ولا تجبي منهم الضرائب (الكيالي، 1990، ص 23). ومن الشائع في التأريخ اليهوديّ والصهيونيّ الحديث، وكذلك في أوساط بعض المؤرّخين البريطانيّين (Friedman, 1968)، النظر إلى تعيين القنصل البريطانيّ الأوّل في القدس عام 1838 على أنّه خطوة نابعة أوّلًا من اهتمام بريطانيّ عَيْنيّ بشأن رفاه اليهود الفلسطينيّين (The welfare of Palestinian Jews)، وثانيًا من التعاطف البريطانيّ تجاه فكرة "إحياء اليهود" (The restoration of the Jews) التي من شأنها تحصين وتعزيز السيادة البريطانيّة في بلاد الشام. وعلى الرغم من وجود بعض الادّعاءات المتضاربة بشأن هدف تعيين القنصل،[5] فإنّ الاهتمام البريطانيّ بالجالية اليهوديّة في فلسطين كان جليًّا في العلاقات التي نشأت بينهم بعد تأسيس أوّل قنصليّة في القدس. فكما يشير فريدمان (Ibid, p. 24)، لفت ويليام يانڤ، الذي شغل منصب القنصل البريطانيّ آنذاك، نظرَ وزيرِ الخارجيّة قُبَيْل سفره إلى القدس إلى رغبته في خلق طابع جيّد لدى حكومته، والعمل وَفْق مصالحها عن طريق إنشاء علاقات ودّيّة مع اليهود من سكّان فلسطين. وفي كانون الثاني من العام 1839، نجد ڤيسكاونت پالمرستون -سكرتير الشؤون الخارجيّة البريطانيّة آنذاك- يُمْلي تعليماته بأنّ جزءًا من المسؤوليّات المترتّبة على عاتق القنصليّة البريطانيّة في القدس هي "توفير حماية لليهود بصورة عامّة" (Bidwell, 1839). وفي نيسان من العام التالي، التقى پالمرستون مع اللجنة اليهوديّة، التي ترأّسها آنذاك موشيه مونتِفيوري، أحد كبار المتبرّعين اليهود البريطانيّين لدعم نشاطات يهوديّة (ولاحقًا صهيونيّة)، ووعده باستخدام نفوذه مع محمّد علي باشا والسلطان في سبيل خلق "حماية وحالة من الاستقرار" لدى اليهود في المنطقة، وكان مقتنعًا بأنّ تحقيق ذلك سيكون ممكنًا فقط "حين ينعم اليهود في المنطقة من ممارسة حقّهم في الملْكيّة" (Loewe, 1890, pp. 214-215). في وقت لاحق من العام نفسه، وردًّا على ذلك، عبّر مونتِفيوري عن رغبته بتشغيل ودمج اليهود في الزراعة في فلسطين، وعَلِمَ من القنصل فيما بعد عن نيّة الدولة البريطانيّة في تمويل مشروع زراعيّ كبير في فلسطين لليهود (Friedman, 1968, p. 29).

5. هناك بالطبع عدّة مقولات حاولت دحض هذا الادّعاء، أكثرها شيوعًا كانت للباحث مئير ڤاڤرته، الذي أشار إلى أنّه في عام 1834، حين نوقِشت صياغة مقترَح لإقامة قنصليّة بريطانيّة في القدس، لم يُشَرْ بوضوح إلى المسألة اليهوديّة، بل لم يُذكر اليهود. ففي نظر ڤاڤرته، تجب رؤية القنصليّة البريطانيّة في القدس على أنّها خطّة لإنشاء قنصليّات في الأراضي التي تقع تحت سيطرة السلطان بغية دعم الأطماع البريطانيّة وتقديم بدائل جديدة للقوى في المنطقة، وفي الأساس تلك الروسيّة (Verete, 1961/1970).

والواقع، كما يشير عبد الوهاب الكيالي (1990، ص 24)، أنّ القضيّة تخطّت في مرحلةٍ ما مسألة حماية اليهود في فلسطين؛ فالجالية اليهوديّة كانت صغيرة نسبيًّا ولا تتجاوز تسعة آلاف وسبعمئة نسمة موزَّعين بين القدس والجليل وصفد وطبريّا. وكان هدف بريطانيا استقدام جاليات يهوديّة لأسباب ودوافع استعماريّة بيَّنَها بوضوح سكرتيرُ الشؤون الخارجيّة البريطانيّة پالمرستون، وذلك في رسالة بعث بها إلى سفيره في إسطنبول شرح فيها على النحو التالي المنافع السياسيّة والماديّة التي تعود على السلطان العثمانيّ من جرّاء تشجيع الهجرة اليهوديّة إلى فلسطين: "إنّ عودة الشعب اليهوديّ إلى فلسطين بدعوة من السلطان وتحت حمايته تشكّل سدًّا في وجه مخطّطات شرّيرة يعدّها محمّد علي أو من يَخْلفه" (المصدر السابق). من المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ مبادرة پالمرستون هذه في تشجيع فكرة "العودة" والاستيطان اليهوديّ في فلسطين سبقت ظهور الحركة الصهيونيّة بعدّة عقود من الزمن، بل لقد سبقت ظهور كتابات روّاد الفكر الصهيونيّ أنفسهم، الذين بدأوا في مطلع ستّينيّات القرن التاسع عشر يَدْعون من أجل "العودة" إلى فلسطين وبناء وطن قوميّ يهوديّ. وقبل ظهور الصهيونيّة كحركة، اقتصرت محاولات إيجاد مجتمعات ومستعمرات زراعيّة يهوديّة في فلسطين قبل ثمانينيّات القرن التاسع عشر على المؤسّسات والنشاطات ذات الطابع الخيريّ التي عملت برعاية أصحاب رؤوس الأموال اليهود، مثل زيارات مونتِفيوري وزوجته ومساعيهما تجاه الجاليات اليهوديّة في فلسطين، ومثل "المؤسّسة العبريّة اللندنيّة لاستعمار الأرض المقدَّسة" التي أُسّست عام 1861، وَ "التحالف الإسرائيليّ العالميّ" الذي كان تأسيسه في السنة ذاتها في فرنسا بقصد حماية اليهود وتحسين أحوالهم في العالم بصورة عامّة، وفي الأراضي الإسلاميّة على وجه الخصوص. إذن سنُمَوْضِع قراءتنا للاستيطان اليهوديّ في الجولان انطلاقًا من الاهتمام البريطانيّ بحمايتهم ومساعدتهم على تحقيق استقرارهم في المنطقة، وفي ظلّ العمل الخيريّ للمؤسّسات في الغرب تجاه الجاليات اليهوديّة في فلسطين عامّةً، وتحديدًا صفد وطبريّا في حالتنا.

المستوطنون اليهود في صفد – بوادر استيطانيّة صهيونيّة

لم يبدأ الاستيطان الصهيونيّ في الجولان في حزيران عام 1967، بل تعود المحاولات الصهيونيّة الأولى (التي بلغ عددها سابقًا العشرات) إلى أكثر من مئة عام قبل ذلك، بحيث تشكّل مرحلة احتلال الجولان بداية لمحاولة مستمرّة حتّى يومنا هذا. عمليًّا، ظهرت فكرة الاستيطان اليهوديّ في منطقة الجولان مع بدايات مساعي وممارسات الاستيطان اليهوديّ في فلسطين في النصف الثاني من ثلاثينيّات القرن التاسع عشر (الكيالي، 1990، ص 24)، ويمكن ربطها على نحوٍ مُباشر بزيارة مونتِفيوري الثانية إلى فلسطين. كان مونتِفيوري أوّل مَن مارَس عمليًّا فكرة الاستيطان عام 1837، مع إنشائه لأوّل مستعمَرة يهوديّة في

أرض فلسطين التي كانت إبّان ذلك الوقت تحت الحكم المصريّ. فخلال زيارة مونتِفيوري الثانية بصحبة زوجته لفلسطين وبلاد الشام عام 1839، والتي زار فيها بالأساس منطقة صفد وطبريّا بعد أن كان على علم بوضع الجالية اليهوديّة هناك، كرّس جهوده خلال تلك الزيارة لدعم وتحسين مكانة اليهود، ولا سيّما "حمايتهم"، وتحديدًا بعد أن سمع منهم أنّ "استصلاح الأرض والعمل فيها هو الحلّ الوحيد لتحسين وضمان ثبات وضعهم الاقتصاديّ والمعيشيّ" (Loewe, 1890, p. 165).[6]

كان مونتِفيوري، قُبَيْل زيارته هذه لصفد وطبريّا، قد زار مصر عام 1838 للقاء الوالي محمّد علي باشا، الذي كان آنذاك حاكمًا عامًّا على سوريا، وطلب منه تأجير اليهود مئة قرية أو مئتين لمدّة خمسين عامًا فيها. هذه كانت، عمليًّا، المرّة الأولى التي يُنظَر فيها إلى أراضٍ في منطقة شمال فلسطين والجولان على أنّها هدف ووجهة ممكنة للوجود اليهوديّ المستمرّ، على نحوٍ ما يظهر في مذكرّات مونتِفيوري وزوجته، التي نُشرت لاحقًا عام 1890 (المصدر السابق)، في الجزء الذي حمل عنوان "مشروع استصلاح الأرض" (Project for cultivation of the land). وعلى الرغم من أنّ المذكّرات لا تأتي على ذكر حدود منطقة واحدة على نحوٍ مباشر وواضح، يدلّنا اتّباع مسار رحلة مونتِفيوري وزوجته على وجودهما بين صفد وطبريّا، مع الإشارة إلى "مناطق يكثر فيها وجود الدروز" -على حدّ تعبيرهما- (المصدر السابق، ص 163-168). فضلًا عن هذا، نَعْلم من مصادر أخرى ذات صلة (كيوان والأسدي، 1996، ص 43) أنّ الحديث بين مونتِفيوري ومحمّد علي باشا دار بشأن مناطق في "ربوع سوريّا"؛ إذ يقول مونتِفيوري:

> من جميع المعلومات التي كان باستطاعتي الحصول عليها، يبدو لي أنّ الأرض في هذه المنطقة ملائمة بصورة خاصّة للاستثمار الزراعيّ. هناك بساتين من أشجار الزيتون، عمرها بتقديري ما يربو على خمسمئة عام، وكروم العنب، والكثير من المراعي والآبار ووفرة في المياه. كذلك ثمّة أشجار التين والجوز واللوز والتوت، والحقول الغنيّة بالقمح والشعير والعدس. عمليًّا، هذه أرض تُنتِج بوفرة كلّ شيء تقريبًا، وتحتاج إلى القليل من المهارة واليد العاملة. أنا متأكّد من أنّ الخطّة التي أفكّر فيها لها أن تنجح؛ إذ من شأنها إدخال السعادة والوفرة إلى الأرض المقدّسة. في البداية، سأتقدّم بطلب إلى محمّد علي باشا للحصول على منحة للأرض لمدّة خمسين عامًا، نحو مئة قرية أو مئتين، مقابل إعطائه أجرًا متزايدًا بعشرة أو عشرين بالمئة، ودفع كامل المبلغ المادّيّ

6. على الرغم من أنّ هذه المرحلة سبقت المشروع الصهيونيّ الرسميّ وغايته بقيام مشروع سياديّ ووطن في فلسطين والجولان، من المهمّ ملاحظة وربط الظروف والمساعي التي ستنبثق عنها بكونها عوامل ستتراكم وستصبح مؤسِّسة للمشروع الصهيونيّ السياديّ والدولة الإسرائيليّة لاحقًا.

> سنويًّا في الإسكندريّة، وبهذا ستكون الأرض والمَزارع حرّة، طَوال المدّة، من كلّ ضريبة، سواء أكان ذاك من محمّد علي باشا نفسه أَمْ من المسؤولين في المحافظات المختلفة، وبهذا سنكون أحرارًا في بيع المنتَج في أيّ رقعة على هذه المعمورة. إن حصلتُ على هذه المنحة، وجب عليّ فور رجوعي إلى إنجلترا تشكيلُ شركة لزراعة الأرض وتشجيع إخواننا في أوروبا للعودة إلى فلسطين. العديد من اليهود اليوم يهاجرون إلى شمال شرق أستراليا وكندا، ولكن في الأرض المقدّسة سيجدون قَدْرًا أكبر من اليقين من النجاح، فهنا سيجدون الآبار فعلًا محفورة، وسيجدون الزيتون والكروم مزروعة، والأرض غنيّة جدًّا بحيث تتطلّب القليل من السماد. وأتمنّى أن أحثّ آلاف إخواننا على العودة إلى أرض إسرائيل؛ فأنا متأكّد من أنّهم سيكونون سعداء بالتمتّع في أداء الطقوس الدينيّة على نحوٍ يستحيل أن يتاح لهم في أوروبا (Loewe, 1890, p. 167).[7]

على الرغم من عدم الإشارة إلى المبرّرات الدينيّة التوراتيّة في مذكّرات ورسائل مونتِفيوري أعلاه، في تعامله مع قضيّة مُلكيّة اليهود للأراضي في المنطقة، والتي دائمًا نرى أنّه غَلب فيها طابع "حماية اليهود" على "حاجتهم إلى استعادة جذورهم الدينيّة التاريخيّة هناك"، فإنّ التوجّه الصهيونيّ، الآخذ من اليهوديّة الدينيّة أساسًا له، كان مركزيًّا في خطابه. نرى هنا كيف أنّ عبارات مثل "العودة إلى أرض إسرائيل"، أو "العودة إلى الأرض المقدّسة"، استُخدِمَت أيضًا في هذه الحالة لتشير إلى ما تمَّ صهيونيًّا تصوُّره على أنّه جذر (وجغرافيا) الوجود القوميّ والثقافيّ اليهوديّ الأصيل،[8] حتّى قبل تبلور الادّعاء الصهيونيّ القوميّ تبلورًا واضحًا، وحتّى في جغرافيّات كالجولان، التي لا يأتي النصّ الدينيّ التوراتيّ اليهوديّ

7. ترجمة المؤلّف. من اللافت للنظر ما يوفّره لنا هذا الاقتباس من مَعانٍ حَول جذور التفكير الاستعماريّ. ففكرة استغلال "وجود آبار محفورة مُسبقًا" في المنطقة، أو الطمع في المجيء للمنطقة بكونها تحوي مجتمعًا متسامحًا ومتقبّلًا للآخر دينيًّا، يدلّ على رغبة لدى المستعمِر بالسطو على بنْية تحتيّة زراعيّة واقتصاديّة واجتماعيّة حيويّة موجودة ومتحقّقة أصلًا على يد السكّان الأصليّين.

8 هنالك دور شائكٌ لكن جوهريٌّ للبُعد الدينيّ اليهوديّ في المحاولات التي شكّلت أساسًا للصهيونيّة (في فلسطين، وكذلك الجولان). تحليلي هنا متأثّر على نحوٍ خاصّ بأعمال الباحث أمنون راز-كراكوتْسكين (2014)، الذي يبحث في البُعد اللاهوتيّ في الصهيونيّة. وَفقًا لهذا الباحث، يجوز القول إنّ المفاهيم القوميّة والعلمانيّة للصهيونيّة ربّما قد استُمِدّت من مصادر يهوديّة، وإنّ الصهيونيّة استلهمت مصادر يهوديّة تراثيّة. مخيال العودة، وجمع الشتات، وبناء الهيكل، كانت دائمًا هاجسًا يشغل المخيال اليهوديّ. صياغة هذه العناصر بمصطلحات حديثة وتكييفها للخطاب الغربيّ الحديث أضفيا عليها معنى جديدًا وشكّلا تحوّلًا في الفهم أو التصوّر اليهوديّ للتاريخ. على الرغم من أنّ الدور الذي قامت به اللغة الدينيّة الممزوجة مع اللغة القوميّة في تكوين الدافع والمخيال الدينيّ لم يكن أمرًا تنفرد فيه الصهيونيّة، تفرّدت الصهيونيّة -كما يدّعي أمنون راز- في وعيها القوميّ الذي كان منذ البداية تأويلًا للأسطورة الدينيّة ولم يكن وعيًا بديلًا لها. وبعبارة أخرى، لم تقترن فكرة الأمّة فحسْب ببُعد لاهوتيّ، وإنّما القوميّة نفسها كانت إعادة تأويل للأسطورة الدينيّة اليهوديّة _ المسيحيّة (Christian-Jewish myth) وتكييفها مع المفهوم الحديث الغربيّ للتاريخ (Raz-Krakotzkin, 2013, pp. 37-70).

تقريبًا على ذكرها.[9] المقصود أنّه في هذه المرحلة من التطلّع إلى الاستيطان اليهوديّ في الجولان، وعلى العكس من المحاولات في المراحل المستقبليّة التي سآتي على ذكرها لاحقًا، لم يكن النصّ الدينيّ اليهوديّ ذاته محرّكًا للاستيطان، بل إنّ **المخيال الدينيّ اليهوديّ** (راز-كراكوتْسكين، 2014، ص 83)، الذي كيّفته الصهيونيّة القوميّة فيما بعد عن طريق تأويلها له، هو الذي قام بدَوْر مركزيّ في هذه الحقبة.

إضافة إلى ذلك، نرى أنّ خطاب "إنقاذ وحماية اليهود" الذي استخدمه مونتِفيوري، في تعامله مع اليهود سكّان البلاد وتحديدًا في منطقة صفد (الذين سيأخذون دَوْرًا مركزيًّا في محاولات الاستيطان التي ستأتي لاحقًا في الجولان)، وكذلك في مُراسلاته مع الجهات الدوليّة التي كان لها نفوذ ومطامع في فلسطين وسوريا، تقاطَعَ تقاطعًا تامًّا مع المخيال الدينيّ اليهوديّ. فمحاولات مونتِفيوري وزوجته "لإنقاذ" اليهود وَ "حمايتهم" إمّا من "الفقر المدقع الذي عانَوْا منه"، أو من "الهجمات المختلفة عليهم من قِبل دروز الجبل"، والتي دوّنها مونتِفيوري وزوجته على نحوٍ مفصّل في مذكّراتهما (Loewe, 1890, pp. 166-167)، حصلت على تقدير كبير من قِبَل الجاليات اليهوديّة المحلّيّة، حتّى لقد رأى البعض في زيارة مونتِفيوري إلى مناطق صفد ومساعيه مع اليهود هناك إشارة واضحة إلى اقتراب قدوم المسيح المنتظَر (PEF Archives, 1869, p. 131).[10] سنرى في الأجزاء التالية كيف كان لهذه المخيّلات، بوصف اليهود بأنّهم مُضطهَدون في فلسطين، أو بالرغبة في "العودة إلى الأرض المقدّسة"، دَوْرٌ أساسيّ في تصوُّر وتشكيل جغرافيا وهُويّة الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ في الجولان. فكما تُذكّرنا الأدبيّات النقديّة، يجب أن يُنظر إلى اليهوديّة في حركتها نحو الاستيطان (في الجولان كما في فلسطين) على أنّها تفسير للأسطورة اللاهوتيّة من خلال التعبير عنها كسرديّة وطنيّة (Raz-Krakotzkin, 2013)، ومن خلال العمل على "إثبات أدلّتها" على أرض الواقع (Abu El-Haj, 2001).

9. من الصعب في هذه الورقة التعمّق في شرح المراجع التوراتيّة والدينيّة اليهوديّة للجولان، ولكن من المهمّ الإشارة إليها. في رسالة الماجستير التي قدّمتْها الطالبة أسماء راتب معروف شهوان في كلّيّة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة عام 2010، تتطرّق إلى عدم ذكْر الجولان في التوراة باستثناء موقع واحد فقط، وعلى وجه التحديد تحت اسم "باشان"، وذلك في سفر حزقيال 18:39 القائل: "تأكلون لحم الجبابرة وتشربون دم رؤساء الأرض. كباش وحملان وأعتدة وثيران، كلّها من مسمَّنات باشان". أمّا التلمود، فقد حدّد الرقعة التي يدّعي اليهود أنّها أرض إسرائيل مع إضفاء مرونة كبيرة على المطالب الإقليميّة اليهوديّة، وتمكّنُ تلك المرونةُ الفكرَ التوسّعيّ للصهيونيّة الذي لم يعتمد على الوعد الإلهيّ فحسب، وإنّما كذلك على تصوّرات كثيرة أخرى تفاعلت في الذهنيّة اليهوديّة عبْر العصور (شهوان، 2010).

10. في أحد البيانات الفصليّة المنشورة في أرشيف "صندوق استكشاف فلسطين"، تشرح جوديت مونتِفيوري، زوجة موشيه مونتِفيوري، كيف أنّ بعض اليهود في فلسطين رأَوْا في زيارتهما إشارة إلى "أنّ مجيء المسيح قد بات قريبًا، وأنّه سيقدّس الأرض"، وأنّ اليهود أحبّوهما (أي الزوجين مونتِفيوري) لأنّهما "حافظا على قدسيّة يوم السبت" (PEF Archives, QS (32), 1869).

ردًّا على محاولات مونتِفيوري، أعرب محمّد علي باشا عن استعداده لمنح اليهود ترخيصًا لشراء أيّة مساحة يجدونها في ربوع سوريا (كيوان والأسدي، 1996، ص 43)، إلّا أنّ تراجع نفوذ الباشا حالَ دونَ تنفيذ وعده لمونتِفيوري. على الرغم من هذا، تفيد بعض المصادر اليهوديّة (على سبيل المثال: Roth, 1971) بأنّ مونتِفيوري استطاع عام 1855 شراء أراضٍ لأهداف زراعيّة تحت غطاء الفعل الخيريّ (Philanthropic activity)، ومن ضمنها أراضٍ خارج أسوار البلدة القديمة في القدس، وفي صفد وطبريّا. مع هذا، ولربط ذلك بالسياق السابق، يوضّح فريدمان في كتابه بشأن سياسات حماية اليهود في فلسطين وقتذاك قائلًا:

> زراعة الأرض لم تكن الصنعة الوحيدة الواعدة لليهود في البلاد، فكان لهم أربع آلات طباعة في صفد، وعدد من طواحين المياه في طرابلس وصيدا. وعلى الرغم من أنّ الحرس اليهوديّ الذي رافق السيّد مونتِفيوري وزوجته في جولاتهما في فلسطين كان ملائمًا للمخاطر التي فرضها العرب في المنطقة، فإنّ الإحساس العامّ بعدم الأمان والفوضى التي سادت في المنطقة جعلا من المنطقيّ التفكير أنّه إن غابت حماية القوى الأوروبيّة لهم، فسيعاني اليهود في فلسطين من بطش ومن القضاء عليهم على نحوٍ كامل (Utter annihilation)، وأنّ الحماية المرغوب بتوفيرها هناك هي بريطانيا العظمى. فالإنجليز سوف يتولَّوْن إدارة العدل هنا إلى حين قدوم المسيح (Friedman, 1968, p. 30).

الخبرة والسياحة والاستكشاف – التنقيب المعرفيّ والإمبرياليّ والاستعماريّ للجولان:

شهد العام 1865 تأسيس صندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund)، برئاسة "أسقف يورك"، وهي جمعيّة بريطانيّة مقرّها في لندن، اهتمّت بالبحث في الآثار والطوبوجرافيا والجغرافيا الطبيعيّة والتاريخ وتقاليد "الأرض المقدّسة"، وذلك خدمة لأغراض عسكريّة واستخباراتيّة وسياسيّة كانت تحتاجها بريطانيا لبسط نفوذها الاستعماريّ في المنطقة، وتحديدًا في وقت انعدمت فيه الخرائط والمسح الجغرافيّ والديمجرافيّ حَول فلسطين والمناطق المجاورة (Cobbing, 2012, pp. 179-194). نشر الصندوق تقارير عدّة دعت إلى هجرة اليهود إلى فلسطين، وبدون أيّ مجال للشكّ كان المحفّز المركزيّ لعمله هو اكتشاف فلسطين التوراتيّة (Biblical Palestine). في الجلسة الافتتاحيّة للصندوق، خاطب أسقف يورك الأعضاء قائلًا:

> فلسطين [تتبع] لي ولكم. إنّها جوهريًّا لنا. فهي أُعطيت لأبي إسرائيل عندما قيل امشِ الأرض في طولها وعرضها، لأنّي سأعطيك إيّاها [...] ونحن ننوي السير فيها

> طولًا وعرضًا لأنّ الأرض قد أُعطِيَت لنا [...] إنّها الأرض التي قد ننظر إليها بالروح الوطنيّة نفسها التي ننظر بها لإنجلترا القديمة العزيزة التي نحبّها كثيرًا (PEF Archives, 1865).

وما كان مثيرًا للاهتمام في الاجتماعات الأولى التي عقَدها الصندوق هو التشديد على طبيعة عمله، والتأكيد على احتضانه لاختصاصيّين وخبراء من حقول معرفيّة حديثة مختلفة ابتغاءَ تقديم توجُّه علميّ (على العكس من التوجّه الدينيّ التقليديّ) لمعرفة البلاد ولاكتشافها توراتيًّا. تَلاقي البُعد العلميّ والبُعد التوراتيّ هنا هو ميزة أساسيّة لعمل الصندوق، وليس بالتحديد تناقضًا جوهريًّا بين الاثنين. فالعلميّ جاء للتأكيد على وجود التوراتيّ، ولكنْ في الوقت نفسه الرغبةُ التوراتيّة هي ذاتها التي دفعت إلى تشكيل الجهود العلميّة في المقام الأوّل. في الجلسة الافتتاحيّة للصندوق نفسها، أشار الأسقف إلى طبيعة عمله بقوله:

> ها نحن على وَشْك تشكيل أنفسنا على أنّنا الصندوق لاستكشاف فلسطين، آخذين استكشاف الأرض المقدّسة هدفًا ومَوضعًا لنا، ولكن بغيةَ تحقيق الربط بين الأشخاص المختلفين ووجهات نظرهم المختلفة، ومن أجل الالتزام بقوّة هذا المبدأ وبكون عملنا استقرائيًّا بحتًا، نحن لسنا رابطة دينيّة، ولسنا بصدد الدخول في أيّ جدل (المصدر السابق).

في مطلع ثمانينيّات القرن التاسع عشر، عَمل صندوق استكشاف فلسطين على نحوٍ وثيق مع شخصيّتين مركزيّتين انخرطتا في المشروع الاستيطانيّ في فلسطين عامّةً، وفي الجولان على وجه الخصوص. أولى هاتين الشخصيّتين چوتليب شوماخر (Gottlieb Schumacher)، وهو مهندس أمريكيّ (من أصول ألمانيّة) استوطن هو وعائلته في مدينة حيفا في ستّينيّات القرن التاسع عشر، وعائلته كانت من مؤسّسي حيّ "الألمانيّة" هناك. كان شوماخر على علاقات وثيقة مع صندوق استكشاف فلسطين، واعتبره الصندوق "إحدى الشخصيّات المهمّة وصاحبة العلاقات الوثيقة لديهم مع بلاد الشام" (PEF Website, 2020)، وشَرَع في مشروعه الأهمّ (بحسب وصف الصندوق) في عام 1880، وهو إحصاء ومسح مناطق الجولان وحوران وعجلون، كجزء من التحضيرات لبناء سكّة الحديد بين مدينة حيفا ودمشق (خطّ سكك حديد مرج ابن عامر، وهو أحد فروع سكك حديد الحجاز) (انظروا الرسم التوضيحيّ 2). خلال التحضيرات للشروع في المشروع، في فترة الأعوام 1884-1886، قدّم شوماخر أوّل خريطة مفصَّلة لمنطقة الجولان وحوران، وهي خريطة عرضت تفاصيلَ ووصفًا موسَّعًا للمواقع الأثريّة والقرى الواقعة هناك ونوعيّة السكّان وتقاليدهم، ومن بينها -حسب ادّعائه- اثنا عشر موقعًا ضمّت رموزًا يهوديّة عَزَاها إلى بقايا كنيس يهوديّ في كلّ مكان، مثل قرية فيق وأمّ القناطر في الجولان وغيرهما. كلّ هذه التفاصيل قدّمها شوماخر في الفصل

الأخير والأطول من كتابه "الجولان"، من خلال ما يربو على مئتي صفحة موزّعة أسماء المناطق حسب ترتيبها الأبجديّ وعدد سكّانها الذين يبلغون من العمر عشر سنوات وما فوق (Schumacher, 1888). ومع بداية العام 1886، بدأ شوماخر بنشر سلسلة مقالات عن "اكتشافاته" في المنطقة، والتي ظهرت كلّها كترجمات في التقارير الفصليّة لصندوق استكشاف فلسطين، وبعدها نَشر سلسلة كتب تُرجِمت إلى الإنجليزيّة ونُشرت من قِبل الصندوق أيضًا. حقيقة كَوْن شوماخر خَبيرًا ومختصًّا - ومهندسًا على وجه التحديد- كان لها دَوْر مركزيّ في تشكيل المعرفة بشأن الجولان، ولا سيّما الادّعاء أنّ لها طابعًا يهوديًّا؛ وذلك أنّ اهتمامه الدينيّ من جهة، وخبراته المسْحيّة من جهة أخرى، أسهمت بقراءة المعرفة المحلّيّة والأصلانيّة في الجولان، من طرق المعيشة والزيّ والعادات والتقسيمات الديمچرافيّة المحلّيّة وسياسات العلاقات بينها، على نحوٍ رمى -فيما بعد- إلى نشر علميّ استُغِلّ كوسيلة للتوسّع الاستيطانيّ. فشوماخر كان قد أجرى هذا الإحصاء خصّيصًا لصالح "الرابطة الألمانيّة لاستكشاف الأرض المقدّسة" (Deutscher Verein zur Erforschung Palastinas)، مع أنّ ترجمة الإحصاء إلى الإنجليزيّة كانت على يد "صندوق استكشاف فلسطين"، في حين أنّ رحلته هذه كانت مدعومة من الحكومة العثمانيّة باعتباره موظَّفًا لديها (Schayegh, 2014).

الشخصيّة الثانية المركزيّة في هذه الحقبة، والتي هي كذلك عملت على نحوٍ وثيق مع "صندوق استكشاف فلسطين"، هي لورنس أوليفانت (Laurence Oliphant)، وهو مؤلّف ومسافر ودبلوماسيّ وصوفيّ مسيحيّ بريطانيّ.[11] كان أوليفانت من المنظّرين الأوائل لفكرة مدّ خطّ سكّة حديد من حيفا إلى منطقة حوران، ولذلك انضمّ إلى جولات المسح الميدانيّة التي بادر إليها شوماخر. جمعتْ أوليفانت شراكةٌ مع شوماخر في عام 1883، ابتغاء تأسيس شركة للبحث عن مُستثمرين محتمَلين للحصول على تمويل مادّيّ من أجل بناء سكّة الحديد، ومن أجل محاولة الحصول على تصريح بناء لسكّة الحجاز من عائلة سرسق التي كانت صاحبة الامتيازات آنذاك لإقامة سكّة الحديد، والتي قامت باستئجار خدمات كلّ من شوماخر وأوليفانت لهذه الغاية.[12] أوليفانت نفسه كان صهيونيًّا، أي دائمًا حَلمَ في بناء مستوطنة ذات سيادة يهوديّة (Henderson, 1956). ففي عام 1879، سافر إلى فلسطين

11. أوليفانت صهيونيّ غير يهوديّ، دعا بريطانيا لتأييد مشروع توطين اليهود في الأردن وفلسطين عن طريق إنشاء شركة استيطانيّة لتوطين اليهود ترعاها بريطانيا ويكون مقرّها في إسطنبول. لاحقًا سكن مع أوليفانت وزوجته في حيفا الشاعرُ اليهوديّ نفتالي هيرتس إيمبر، الذي شغل منصب سكرتير خاصّ لأوليفانت، وألّف النشيد الوطنيّ الإسرائيلي فيما بعد (المسيري، 2005، مجلد 2، ص 257).

12. عائلة سرسق هي إحدى عائلات بيروت الأرستقراطيّة التي تنتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس. بفضل ثروتها وامتلاكها لأراضٍ واسعة ضمّت ما يقارب سبعًا وسبعين قرية في مرج ابن عامر، نجحت في نسج علاقات وثيقة مع الحكّام الأجانب، بدءًا من السلطنة العثمانيّة وامتدادًا إلى سلطة الانتداب الفرنسيّ (Safran & Goren, 2010).

لتشجيع الاستيطان الزراعيّ اليهوديّ هناك (Jewish agricultural settlement)، ولاحقًا رأى -على غرار سابقيه- أنّ المستوطنات الزراعيّة هي السبيل والآليّة لتخفيف محنة ومعاناة يهود شرق أوروبا. زار مقرّ الحكومة العثمانيّة (الباب العالي) على أمل الحصول على عقد إيجار للنصف الشماليّ من فلسطين لتوطين عدد كبير من اليهود فيها (هذا كان قبل الموجة الأولى من الاستيطان اليهوديّ لأهداف صهيونيّة عام 1882). وفي عام 1885 درس أوليفانت -بتكليف من "صندوق استكشاف فلسطين" أيضًا - الجولانَ، وركّز خلالها على إلقاء محاضرات لشخصيّات سياسيّة ودينيّة وسياسيّة عن تاريخ اليهود في فلسطين وما جاورها، وادّعى أيضًا اكتشاف بقايا معبد يهوديّ في قرية كنف السوريّة (كيوان والأسدي، 1996، ص 43).

من اللافت للانتباه الاستقلاليّةُ نوعًا ما في عمل الرابطات البحثيّة الأوروبيّة (البريطانيّة أو الألمانيّة - على سبيل المثال)، وإن كانت بعيدة عن كونها سُلطات دوليّة، في تطبيق مشاريعها الاستكشافيّة في الجولان في ظلّ كلٍّ مِن حكم الإمبراطوريّة العثمانيّة والدول الأوروبيّة. وهذه ميزة كان قد شخّصها فايز صايغ في تحليله للمساعي الاستعماريّة الاستيطانيّة الصهيونيّة (Sayegh, 1965). وفي كتابه "الاستعمار الاستيطانيّ: إطار نظريّ"، يشير لورنزو فيراتشيني (2010) إلى الطابع الشركاتيّ (The corporate nature) للكيانات الاستعماريّة الاستيطانيّة الذي خوّلها تاريخيًّا أن تنشط في المستعمَرات على شكل قوّة سياسيّة (Political power) بدلًا من سيادة دولاتيّة (State sovereignty). ويقول إنّه علينا فهمها وفهم مشاريعها كأشكال من التنظيم الذاتيّ المستقلّ عن إطار مؤسّسات الدولة، أو حتّى بكونها ليست معنيّة -في الأساس- بإنشاء مؤسّسات دولة في الجغرافيا المستعمَرة في بداية الأمر، حتّى لو أخذت غطاء الدولة الحاليّة مبرّرًا لنشاطها (Veracini, 2010, p. 54). ومن هذا المنظور تحديدًا، من المهمّ قراءة نشاط "صندوق استكشاف فلسطين" أو الرابطة الألمانيّة وعمل كلّ من شوماخر وأوليفانت، كما الشركات والرابطات التي سآتي على ذكرها لاحقًا، بكونها قوى سياسيّة ومعرفيّة ذات أهداف استعماريّة نشطت بعيدًا عن الحاجة إلى وجود دولة أو واحدة (متروپول) داعمة أو مُرسِلة لها. هذا الظرف مهمّ لفهم الحالة العينيّة للصهيونيّة هنا؛ ففي ملاحظة لا بدّ منها أوردها الباحث الأسترالي پاتريك وولف (2012, pp. 135-136) يقول إنّ الصهيونيّة نشأت كحركة عالميّة (International) واعية لأهمّيّة تجنّبها التبعيّة لدولة أُمّ واحدة، وذلك بهدف الاستمتاع بغطاء (ماليّ وسياسيّ) فَوق _ قَوميّ (Transnational)، أو ما أطلق عليه مكسيم رودِنسون "دولة أُمّ جَمْعيّة" (Collective mother) (Rodinson, 1973, p. 76). والعلاقة الأساسيّة المميّزة هنا، بحسب ادّعاء وولف، هي أنّ غياب دولة أُمّ (متروپول) للصهيونيّة شكّل الظرف المادّيّ الملائم للاستيلاء اليهوديّ على الأراضي في فلسطين.

معنى هذا أنّ نشاط الشخصيّات الصهيونيّة والرابطات البحثيّة الداعمة لها كان ممكنًا بكَونها عملت خارج مشروع دولاتيّ سياديّ واضح.

تابعَ "صندوق استكشاف فلسطين" عمل كلّ من شوماخر وأوليفانت في الجولان عن كثب، بحثًا عن إثباتات ورموز يهوديّة هناك؛ ففي أحد التقارير الفصليّة الداخليّة للصندوق ثمّة مراسلات بشأن اكتشافات شوماخر مؤرَّخة بتمّوز عام 1885، وفيها يَرِدُ ما يلي:

> لقد تلقّينا، على نحوٍ متأخّر جدًّا عن بياناتنا الفصليّة، رزمة هامّة من شوماخر، وهي ملاحظة بشأن ما وَرد ذكره في تقارير شهر كانون الثاني ونيسان. [هذه الرزمة] تحتوي على خريطة تغطّي نحو مئتي ميل مربّع من جزء من الجولان، هذا المكان المثير للاهتمام والذي لدينا القليل من المعرفة بشأنه والذي يقع شرق بحيرة الجليل [...] وهي منطقة غير مكتشَفة حتّى الآن [...] كان قد سافر إليها عدّة [رحّالون وباحثون] ولكن شوماخر كان أوّل الذين قدّموا مسحًا دقيقًا لكلّ جزء منها، كما خطّط ورسم أطلالها. إنّ نتائج عمله ملخَّصة باقتضاب شديد في التقرير أدناه. ولكنّه (شوماخر) قد اكتشف، بما لا يُبقي مكانًا للشكّ تقريبًا، الجولانَ التوراتيّة (The Biblical Golan) (PEF Archives, QS, 1885).

في الوقت ذاته، كان لكتابات المؤلّف والدبلوماسيّ لورنس أوليفانت تأثير بالغ على مساعي الاستيطان اليهوديّ المكثَّف في الجولان، وعلى تشجيع فكرة السلطة المستقلّة أو الحكم الذاتيّ لليهود. وبحسب المصادر، محاولاته وإسهاماته سبقت معظم المحاولات اليهوديّة الجِدّيّة في المنطقة. ففي مقدّمة كتابه "أرض الجلعاد"، عرض أوليفانت معتقداته التي استخلصت الحاجة إلى وجود استيطان يهوديّ في منطقة الجولان (1880). ورأى لدى اليهود قدرة على العمل في الزراعة، كونهم نجحوا بذلك في روسيا ومناطق أخرى. كذلك رأى أنّه ثمّة حاجة ماسّة إلى خروج اليهود من أوروبا - نظرًا للملاحقات التي استهدفت أماكن وجودهم-، وأنّ الدولة التركيّة نفسها سوف تُبارَك وتستفيد من استيطان اليهود في مناطقها (نايشطط، 1969، ص 126). وعلى أَثر ذلك، يقترح أوليفانت إرسال بعثة لتقرّر بشأن البقعة الأكثر ملاءَمةً للاستيطان:

> على الرغم من أيّ من الظروف، من المستحيل أن تبقى مهمَلةً المنطقةُ التي تضمّ حدودُها المراعيَ المتْرَفة في الجولان، وجبالَ جلعاد الرائعة، وأراضيَ موآب المليئة بالغابات والسهول الصالحة للزراعة، ووادِيَ الأردن شبه المستقلّ. سواء أنظرنا إليها من وجهة نظر أثريّة، أَم من وجهة تجاريّة، أَمْ من وجهة سياسيّة، تكمن في هذا الإقليم مصلحة وأهمّيّة لا مثيل لها في أيّ دولة مماثلة في تركيّا الآسيويّة (Oliphant, 1881, pp. xxxvi-xxxvii).

بالتزامن مع إصدار أوليفانت هذا، نُشِرت عدّة مراسلات في "Jewish Chronicle" في هذا الصدد، وفي إحدى هذه المراسلات، تردّ "لجنة شركة الاستيطان في رومانيا" على أوليفانت بأنّها على استعداد تامّ للأخذ بتوصياته وتخصيص قرض لهذا الغرض الاستيطانيّ (نايشطط، 1969، ص 127).

لم يكن المسح الأثريّ والإحصاء الديمچرافيّ والاستكشاف التوراتيّ لفلسطين والجولان الطرُقَ الوحيدةَ التي استخدمها "صندوق استكشاف فلسطين" والرابطات الأخرى في تأسيس وإنشاء حقل علميّ بحثيّ إمپرياليّ حول المنطقة. فكما تشير العديد من الأبحاث، شَكّلت السياحةُ الأجنبيّة (وعلى نحوٍ حصريّ التبشيريّة والتوراتيّة منها) إلى فلسطين والجولان ومنطقة شرقيّ الأردن في منتصف القرن التاسع عشر أحدَ القِطاعات الصناعيّة التي ساعدت الرابطات البحثيّة، ومن بينها على نحوٍ أساسيّ "صندوق استكشاف فلسطين"، في جمع المعلومات ونشر خرائط وأدلّة سياحيّة من خلال عمل الشركات الخاصّة، والتي أسهمت إسهامًا جوهريًّا في تشكيل "وَعي غربيّ وتوجُّه بَصريّ توراتيّ" تجاه المنطقة (Cobbing, 2012, pp. 179-194). تقول الباحثة فيليستي كوبينچ إنّه على الرغم من أنّ شرق الأردن كان في تلك الفترة واقعًا تحت حكم الإمبراطوريّة العثمانيّة، بقي لفترة طويلة في أعين المستكشفين وصناديق البحث هاجسًا حدّيًّا (Frontier) (Ibid, p. 181). وعلى الرغم من الظروف المتوتّرة والمَخاطر في تلك المنطقة، قَدِمَ إليها السيّاح الأجانب لاستكشافها بصورة فرديّة ومستقلّة، إلى أن قام توماس كوك (Thomas Cook)، وهو تقيّ معمدانيّ بروتستانتيّ وعضو مخلص لِـ "صندوق استكشاف فلسطين"، بتوسيع تجارته وإنشاء شركته السياحيّة الخاصّة إلى "الأرض المقدّسة" عام 1841، وهي الشركة التي رأى فيها أداة تبشيريّة (Ibid, p. 185). طوّر توماس وابنه جون ماسون كوك شركتهما للسياحة في الشرق الأوسط، وبدأوا في النصف الثاني من ستّينيّات القرن التاسع عشر بتوفير رحلات دينيّة تبشيريّة للمسيحيّين شملت مناطق في القدس وبيت لحم والناصرة وأريحا وطبريّا. اعتُبِرت شركة كوك السياحيّة رائدة آنذاك، وشكّلت مصدرًا أساسيًّا في مساعدة "صندوق استكشاف فلسطين" في زيادة حجم المعرفة بشأن المنطقة عبْر توفير الخرائط والصور والشروح الدقيقة. وعندما قام الصندوق بالتفكير في الاستثمار في بحث منطقة شرقيّ الأردن والجولان، كانت شركة توماس كوك وابنِهِ أوّلَ من قدّم مناقصة للشروع في هذا المشروع. وكان أوّلُ مشروع للصندوق لبحث المنطقة بتوجيه من الجنرال تشارلز وارن (Charles Warren)، الذي كان ضابطًا في سلاح المهندسين الملَكيّ البريطانيّ (Royal Engineers) وواحدًا من أوائل علماء الآثار المبعوث إلى فلسطين، وذا علاقات وثيقة مع صندوق الاستكشاف (Abujaber & Cobbing, 2005, p. 29). وفي عام 1876، نشرت شركة كوك كُتيّبًا سياحيًّا شمل فلسطين وسوريا وشرحًا مفصّلًا للمناطق في الجولان، وبرز فيها البُعد

التوراتيّ للمنطقة (لغةً ومضمونًا) (Luke, 1924). شكّل عملُ الشركة السياحيّة هذا علاقةً مثيرة للاهتمام في المنطقة، فهي -من جهة- اعتمدت على "صندوق استكشاف فلسطين" ونفوذه المعرفيّ في فلسطين والجولان لبناء خطوط سفريّة وسياحيّة وكذلك للعمل مع الصندوق في ما يتعلّق بالأمور التقنيّة واللوجستيّة للسفر. ومن جهة أخرى، شكّلت الشركة مصدرًا عمليًّا مهمًّا للمعلومات استفاد منه "صندوق استكشاف فلسطين" لزيادة معرفته ونفوذه في المنطقة، وكذلك لنشر التوجّه التوراتيّ في التعامل مع هذه المواقع، بما فيها الجولان. هذه الحقائق والمصادر المعرفيّة ستكون بمثابة عوامل مركزيّة مساعِدة في المرحلة التالية للاستيطان اليهوديّ في الجولان في ثمانينيّات القرن التاسع عشر التي تُعتَبر السنواتِ المؤسِّسةَ في محاولات الاستيطان الصهيونيّ هناك.

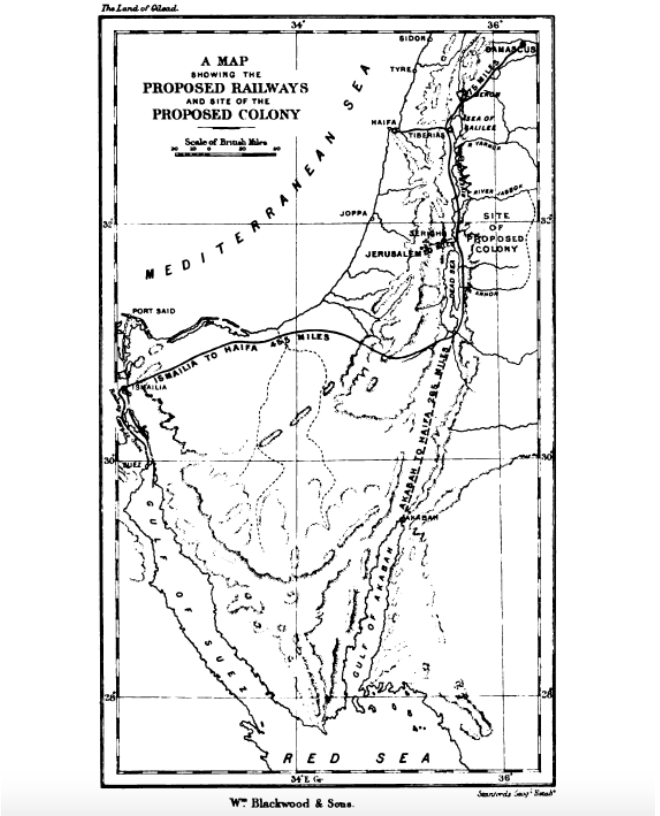

الرسم التوضيحيّ 2 – خارطة تُظهر مُقترح سكّة الحديد من حيفا إلى دمشق، مرورًا في الجولان (Oliphant, 1881, p. 303).

ثمانينيّات القرن التاسع عشر – سنوات مؤسِّسة في محاولات الاستيطان الصهيونيّ في الجولان:

في الغالب، تحمل السرديّات الاستعماريّة الكلاسيكيّة (لا الاستيطانيّة) شكلًا دائريًّا، على مبدأ الأوديسة؛ فهي تنطلق من حركة نحو ما هو خارجها (Outwards)، يتبعها تفاعل مع الآخَر المستعمَر والغريب (Exotic) في المحيط الخارجيّ، وتنتهي بالعودة النهائيّة إلى المحيط الأوّل الذي انطلقت منه. فكما أشار كلّ من الباحثين كريستوفر وَپايبوس وَريدكر، تتميّز السرديّات الاستعماريّة الكلاسيكيّة بما تُمْكِن تسميته "الممرّات الوسطى" (Middle passages)، وهو مصطلح يصف نقاط الوصل للمثلّث التجاريّ الذي تَشكَّلَ نتيجة الممرّ الخارج من أوروبا إلى أفريقيا (Outward passage)، ومن ثَمّ العائد إلى أوروبا من الأمريكيّتين (Homeward passage). وبناءً على ذلك، الممرّات الوسطى هذه هي عامل مؤسِّس في بنْية الاستعمار الأوروبيّ، لأنّ الاستعمار هو كلّ ما يحصل من نقطة الخروج حتّى نقطة العودة (Christopher et al., 2007, pp. 1–19). على العكس من هذا، يشدّد ڤيراتشيني أنّه ليست هنالك "ممرّات وسطى" في الشكل الاستعماريّ الاستيطانيّ الأوروبيّ، ففي هذه الحالة لم يكن هنالك تصوُّر لعودةٍ ما للمستعمِرين من حيث أتَوْا، فعَودة كهذه لم تكن قَطُّ في الأفق (2010). وإن كان المستعمِرون في الشكل الاستعماريّ النمطيّ يعودون بعد "الاستكشاف" إلى بلدهم الأمّ، أو كما وصف ذلك بِنِديكت أندرسون في "الحجّاج العلمانيّون" (Secular pilgrims) -أي إنّ المسافرين يسافرون إلى أرض جديدة ولكن يعودون أدراجهم بعد ذلك- فإنّ الهجرة الاستعماريّة الاستيطانيّة تبقى هجرة دون استكشاف (Non-discovery) (Anderson, 1991, pp. 55-56). فالاستكشاف بطبيعته هو شكل دائريّ، أي يحتاج إلى عودة بعد السفر. وعلى العكس من ذلك، المستوطِنون المستعمِرون -بحسب ڤيراتشيني- لا يستكشفون؛ إذ هم يحملون سيادتهم ونمط حياتهم معهم أينما ذهبوا، فعودتهم حسب تعريفهم هي العودة إلى مكان كانوا قد "فقدوه" سابقًا، أي "عودة إلى الأرض"، ولكن بالأساس إلى جنةّ عدن (2010). إضافة إلى ذلك، لفهم الاستعمار الاستيطانيّ نظريًّا علينا الأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الثنائيّة والمتناقضة في جوهرها لأشكاله ولسرديّاته النموذجيّة، والتي غالبًا تعمل وَفق هدف مزدوج. فهي من جهة تقوم على اضطهاد ومَحو الأصلانيّ المستعمَر، ومن جهة أخرى تحاول هي بذاتها أن تُصبح أصلانيّة. وكما يذكّرنا فايز صايغ في كتابه، منذ مؤتمر بازل في سويسرا عام 1897 حتّى مؤتمر بيلتمور (Biltmore Program) في نيويورك عام 1942، فضّل الصهاينة التعبير الملطَّف "الوطن" على المصطلح الواضح "الدولة" (Sayegh, 1965, p. 3).

هذا الطرح النظريّ مهمّ هنا؛ وذلك أنّه -على نحوٍ ما سنرى- لم يكن اليهود الفئة الوحيدة التي قدِمَت للاستيطان في الجولان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بل كانوا الفئة

الوحيدة التي رافق قدومَها مشروعُ "عَودة" استعماريّ وتخيُّليّ وتوسُّعيّ، وبالأساس ادّعاءٌ بالأصلانيّة. فكما ذكرت سابقًا، دينيًّا كان الاعتبار اللاهوتيّ في دفع اليهود للاستيطان في الجولان ضعيفًا وغير مركزيّ في مطلع القرن التاسع عشر، مع أنّ عبارة مثل "كلّ ما هو شرقيّ [نهر] الأردنّ" ("عيفِر هَيَرْدِين مِزراحاه" – أي جميع المناطق ومن ضمنها الجولان وحوران)، كانت قد تكرّرت كثيرًا في الاقتباسات اليهوديّة التوراتيّة للإشارة إلى أهمّيّة الاستيطان اليهوديّ في الجولان (نايشطط، 1969، ص 127). أمّا جغرافيًّا، فكانت الطرق بين الجولان والجليل سهلة للتنقّل. كذلك من حيث وضوح الرؤية، كان من الممكن رؤية الجولان من منطقتَيْ صفد وطبريّا، والعكس صحيح، وبالأخصّ لمن يحاول مراقبة الجولان عن بُعد أو النَظر تجاهه من جبال الجليل. فكما كتبَ مُردخاي، "لم يضع المستوطنون في صفد الجولان عبثًا نصب أعينهم" (المصدر السابق). كذلك تَذْكر بعض المصادر أنّ العلاقات الاقتصاديّة بين يهود الجليل وسكّان الجولان شكّلت أيضًا عاملًا من العوامل التي دفعت اليهود إلى التفكير في الاستيطان في المنطقة. وفي مقال ليچئال كيـپنيس، وهو مستوطن يهوديّ مُقيم اليوم في مستوطنة كتسرين (مدينة "قصرين" السوريّة سابقًا) في الجولان، يعزو تبلْوُر الاستيطان اليهوديّ الدائم في الجولان ("هِتْيَشْڤوت كِيڤَعْ") إلى ثمانينيّات القرن التاسع عشر. ويقرأ كيـپنيس إمكانيّة حصول ذلك في سياق جلب الدولة العثمانيّة للشركس من مناطق أخرى في الإمبراطوريّة عام 1878 وإسكانهم في الجولان بغية خلق شكل من أشكال "النظام"، ومن أجل تشكيل نقاط وصل بين مناطق الدولة العثمانيّة المختلفة (لأنّ الشركس - بحسب ما كتب كيـپنيس- كانوا قد حاربوا البدو ونجحوا في إبعادهم إلى هوامش الدولة) (كيـپنيس، 2004، ص 117-146).[13] معنى هذا أنّ التغيير الذي أتى به إحضار الشركس إلى الجولان وجعلهم مقيمين دائمين أثّر على مجموعات أخرى (غير البدو الذين عاشوا هناك) بالمجيء والاستقرار أيضًا في المنطقة، الأمر الذي شكّل عاملًا إضافيًّا في تشجيع اليهود على الاستيطان الثابت. وفي ظلّ هذه الظروف والحقبة الزمنيّة، قامت أربع محاولات يهوديّة صهيونيّة رئيسيّة للاستيطان في الجولان. لم تتعمّق الأبحاث النظريّة العربيّة أو الغربيّة بأيّة واحدة من هذه المحاولات، على العكس من المصادر اليهوديّة أو الصهيونيّة التي ركّزت بالأساس على ثلاث منها (الرسم التوضيحيّ 3)، والتي سنأخذ بعضًا منها كمصادر في الأجزاء التالية من هذا الفصل.

13. لا يميّز كيـپنيس في مقاله بين مشهد استعماريّ وآخر غير استعماريّ، ويدّعي أنّ توطين الشركس يمثّل بداية الفترة الحاليّة للاستيطان الدائم في الجولان. ويشير إلى الشركس بكونهم "من نسل المهاجرين من جبال القوقاز، بحيث لم يكن طريقهم إلى الجولان من القوقاز مباشرة، بل من مواقع أخرى داخل حدود الإمبراطوريّة العثمانيّة [...] وأنّه بسبب نشاطهم في الحرب الروسيّة التركيّة في الأعوام 1875-1877، كانوا قد غادروا البلقان في نهاية الحرب، وانضمّوا إلى مجتمعهم في الأناضول، ومن هناك جرى توجيههم إلى الجولان" (كيـپنيس، 2004، ص 121).

أولى تلك المحاولات كانت على يد رابطة "بْنِي يهودا" في مدينة صفد. أُسّست الرابطة عام 1884، وكان حلم المستوطنين اليهود الشباب فيها هو إحداث "تحرير" حقيقيّ للأرض ("چيئولات هَأَدَماه" -وَفق المفهوم اليهوديّ التوراتيّ)، وكذلك الانتقال من نمط المعيشة الزراعيّ التوزيعيّ والمشترك إلى نمط آخر، وهو تجهيز الأرض ("عيبود هَأَدَماه"). وقبل ذلك ببضع سنوات، وتحديدًا عام 1878، كان يهود صهيونيّون من صفد (وعلى وجه التحديد ناشط صهيونيّ اسمه إلِعيزِر روفَح) قد اشترَوْا ما يقارب نصف أراضي قرية الجاعونة الفلسطينيّة، وبنَوْا عليها مستوطنة ("موشَفاه") أسمَوْها "چاي-أوني" (واسمها يقارب صيغة الاسم العربيّ)، والتي تُعْرَف اليوم بمستوطنة "رُوشْ پيناه". ومستوطنة "رُوشْ پيناه" أقيمت قبل بضعة أسابيع فقط من بناء مستوطنة "پِـيتَح تِكْفاه"، لتكون هي المستوطنة اليهوديّة الأولى في فلسطين (نايشطط، 1969، ص 127). ويقول مردخاي إنّ أعضاء رابطة "بْنِي يهودا"، أو حتّى أعضاء رابطة "بْنِي تْسِيُون" (وهي البؤرة الاستيطانيّة الثانية التي نشطت في صفد آنذاك)، لم يكتفوا بأن يكونوا فقط مزارعين أو مستصلحين للأرض، بل كانوا أصحاب رؤية وطموح، ورأَوْا في أنفسهم "حَلُوْتْسِيم"، أي "روّادًا في مساعي العودة للأرض"، وكذلك أرادوا تسويق أنفسهم على أنّهم روّاد في الاستيطان اليهوديّ في شرق الأردن عامّة والجولان خاصّة (المصدر السابق، ص 130). ويشدّد أنّ إيمان أعضاء هاتين البؤرتين الاستيطانيّتين بنجاح حركتهم تحديدًا في هذا الظرف الزمنيّ، كان نظرًا لنجاح تأقلم الاستيطان الشركسيّ في الجولان على يد حكم الإمبراطوريّة العثمانيّة. ففي أحد النصوص التي كتبها أعضاء رابطة "بْنِي يهودا" من تلك الحقبة للتشديد على أمل وضرورة نجاح محاولتهم الاستيطانيّة، يقولون إنّه "علينا التعلّم من الشركس الذين أقاموا لهم ثلاث عشرة مستوطنة (في جبال حرمون في الجولان)، على الرغم من أنّهم جاءوا إلى هذه البلاد ولم يكن لديهم حتّى خبز، ولكنّهم استصلحوا الأرض بجِدّ واجتهاد وحصلوا على ثمار ذلك، وها هم اليوم سعداء" (المصدر السابق، ص 131). كان لورنس أوليفانت وزوجته من أوّل المنبهرين من فكرة الاستيطان اليهوديّ الصهيونيّ في المنطقة، أو كما وصفوا ذلك "عودة صهيون" (شِيفاتْ تْسِيون)، وبناءً على ذلك، اجتمع أعضاء رابطة "بْنِي يهودا" مع الزوجين أوليفانت ليجري حينها التخطيط الأوّليّ (أيديولوجيًّا ومادّيًّا) لشراء أرض في الجولان، وتحديدًا أراضي قرية الرمثانيّة السوريّة (تقع على مَبعدة نحو خمسة عشر كيلومترًا من جنوب مدينة القنيطرة).

يكتب موشيه عِنْبار وإيلي شيلر، في كتابهما "مئة عام من المحاولات الاستيطانيّة في الجولان"، عن هذه المحاولة تحديدًا، ويسردان الطريقة التي فيها بدأت رابطة "بْنِي يهودا" وأعضاؤها بتسوية أراضٍ في الرمثانيّة في صيف عام 1885، بحيث كانت تخرج مجموعات منهم من صفد إلى القرية السوريّة مرّة كلّ أسبوعين، واستوطنوا في مبنى كبير وسط القرية، وبدأوا

بمحاولة استصلاح الأرض والبحث عن آثار يهوديّة (عنبار وشيلر، 1985، ص 100).[14] وكان أوّل عنوان قديم يونانيّ أثريّ أرسله اليهود من الجولان ليطّلع عليه أوليفانت عبارة عن رسمة وجدتْها رابطة "بْنِي يهودا" في قرية الرمثانيّة. فكانت تعليمات أوليفانت للمستوطنين اليهود الأوائل في الجولان تقضي بأن "ينتبهوا جيّدًا ويعملوا بحذر وقت استصلاح الأرض واكتشافها، علمًا بوجود بقايا آثار كان شوماخر قد رصدها في إحصاءاته السابقة" (نايشطط، 1969، ص 133). وفي الخامس عشر من أيلول من العام نفسه (1885)، يكتب أوليفانت برقيّة إلى مجموعة دينيّة في شمال إنجلترا ليقول فيها: "موشَـفاه جديدة في الجولان، التجربة مثيرة، كونها قامت على أيدي يهود يسكنون المنطقة منذ زمن، يهود وُلدوا هناك، يعرفون اللغة العربيّة، وجميعهم مواطنون أتراك" (عنبار وشيلر، 1985، ص 100).

وفي مطلع العام التالي، أي في عام 1886، نرى بدايات محاولات اليهود في صفد بتنظيمات جِدّيّة في أوساط المستوطنين الفاعلين في العالم لحثّهم على الاستيطان في الجولان. فأعضاء "بْنِي يهودا"، الذين مع الوقت بدأوا بإطلاق تسمية "بيت يهودا" على رابطتهم، ضمّوا آنذاك ثلاثين عائلة من السكّان والمستوطنين اليهود في مدينة صفد الفلسطينيّة (المصدر السابق، ص 101)، وآمنوا مُجاهِرين بأنّ الجولان "هو جزء لا يتجزّأ من أرض إسرائيل التي يطمحون إليها"، كما أشاروا إليها باسْم "إسرائيل الشرقيّة". الرابطة كانت قد وزّعت بيانًا في العام نفسه أعلنت من خلاله لأوّل مرّة عن شراء أراضٍ في الجولان -والمقصود شراء سبعين فدّانًا (الفدّان يعادل نحو أربعة آلاف ومئتَيْ متر مربّع) ومبنى قديم في أراضي الرمثانيّة.

تقدّمت المحاولة تقدُّمًا جيّدًا في البداية، وحاول أعضاء الرابطة زراعة الأراضي وبناء المنازل فيها آنذاك، ولكن لعدم حصولهم على كواشين وأوراق رسميّة وقانونيّة للأراضي من دمشق، تخلَّوْا عن فكرة إنشاء المستوطنة، وعادوا إلى صفد بعد عامَيْن من قدومهم (أي عام 1888). يعود السبب في عودة المستوطنين من الرمثانيّة في الجولان إلى صفد أيضًا لعدم حصولهم على دعم مادّيّ كافٍ، على الرغم من نشرهم طلب تمويل ودعم في العديد من المجلّات اليهوديّة في العالم (المصدر السابق، ص 101). من المهمّ الإشارة أنّه في تلك الأثناء كان البارون روتشيلد وأعضاء حركة "مُحبّو صهيون" ("حُوفِفِـي تْسِيون") في أوج دعمهم المادّيّ لمساعي الاستيطان في فلسطين، ووحده أوليفانت دَعَمَ (أيديولوجيًّا ومادّيًّا) الاستيطان في قرية الرمثانيّة، لكونها جزءًا من "أرض جلعاد" التي حَلم بها وكتب عنها كتابه (1880).

ثمّة مصادر مختلفة تَذْكر أنّه في عام 1888 تمكّن المستوطنون في رابطة "بْنِي يهودا" من شراء ثلث أراضي قرية بير شكوم (جنوبيّ الجولان) بتمويل من أوليفانت، ونجحوا إذّاك في

14. تعذّر عليّ العثور على مصدر عربيّ أو غير ذلك يوثّق حياة سكّان قرية الرمثانيّة العرب في ذلك الحين، وتحديدًا ردود فعلهم على زيارات اليهود المتكرّرة للقرية آنذاك.

تسجيل كواشين بأسمائهم (قعقور، 2003، ص 52). ولكن في العام نفسه توفّي أوليفانت ووقعت الرابطة في أزمة ماليّة، فقد كان هو الداعم المركزيّ لها، وأدّى انتشار وباء الكوليرا في سوريا في تلك الفترة (عام 1890) إلى إغلاق المنطقة، وإلى عودة المستوطنين مرّة أخرى إلى صفد لعدم تمكُّنهم من فلاحة الأرض طيلة أشهر. في عام 1893، لم يتبقَّ أحد منهم في الجولان.

المحاولة الثانية للاستيطان اليهوديّ كانت في منطقة حوران، والحديث هنا يجري، وَفق المصادر اليهوديّة، عن نحو مئة وعشرين ألف دونم جرى شراؤها شرقيّ الجولان، في المنطقة التي عُرِفت باسْم "حوران" (عنبار وشيلر، 1985). ففي عام 1891، اشترت جزءًا من الأراضي رابطةٌ روسيّة، ورابطة باسم "شَفـي تْسِيون" الأمريكيّة. ولكن نظرًا لعدم وجود رابطات كافية لشراء الأراضي، جَرَت الاستعانة بالبارون روتشيلد. في عام 1894، تمكّنوا بمساعدة روتشيلد الماليّة من شراء أراضٍ تُقدَّر مساحتها بنحو مئة ألف دونم في الجزء الجنوبيّ الغربيّ من حوران، في قرى سحم الجولان، وجيلين ونبعة وبوسطاس.[15] من الشخصيّات المركزيّة وقتذاك كان آدم روزنبرج، مدير رابطة " شَفـي تْسِيون" في نيويورك، الذي جاء هو بنفسه للاستيطان في حوران، وكان من بين القادة الوحيدين الذين جاءوا ومارسوا الفكر الصهيونيّ فعلًا في الجولان (المصدر السابق، ص 101). وبحسب المصدر السابق لدى عِنْبار وشيلر، كانت هذه المرّة الأولى التي يهاجر فيها صهيونيّون من أمريكا للاستيطان في ما تخيّلوا أنّه "أرض إسرائيل". عادت ملْكيّة هذه الأراضي لشخص اسمه أحمد باشا أبو الهدى، وهو رجل مَلّاك من دمشق. اشترى الأراضيَ منه عملاءُ يهود وقاموا بتسجيلها باسْمِ يهوديّ يحمل الجنسيّة الفرنسيّة ولديه نفوذ لدى السلطة في دمشق وبيروت، حيث منع القانون العثمانيّ آنذاك بيع الأراضي التي تملكها الدولة (الميري) لليهود الذين لا يحملون الجنسيّة العثمانيّة. مع هذا، استغلّ روتشيلد نفوذه داخل البلاط العثمانيّ، وحصل على إذن بإدخال ما بين مئتين وثلاثمئة عائلة يهوديّة إلى حوران سنويًّا، مع السماح لها بالاستيطان في الأراضي التي اشترَوْها هناك. بعد عام، أي في نهاية صيف عام 1895، وصلت إلى حوران عائلات يهوديّة من رومانيا والولايات المتّحدة وروسيا، إلّا أنّها لم تكن مؤهَّلة للعمل الزراعيّ وظروف الحياة الصعبة وغير الملائمة لطبيعة ونمط حياتهم، وكذلك واجهت هذه العائلات العديد من الصعوبات في التأقلم، واضطُرّت إلى المغادرة. أمّا في عام 1899، فقد نجح روتشيلد في تسجيل الأرض باسْم أحد مديري شركة "إيكا" في باريس (الشركة اليهوديّة للاستيطان)

15. بطبيعة الحال، لم تَذْكر المصادر العبريّة التي استخدمتُها في هذا البحث أيًّا من أسماء الشخصيّات التي باعت أراضيها في الجولان. ففي كتاب عنبار وشيلر (1985، ص 99)، ذُكر عبد الرحمن باشا مرّة واحدة فقط في سياق شراء الأراضي في الجولان، ووُصف هناك بأنّه "كرديّ غنيّ".

(Jewish Charitable Association).[16] وبعد أن دخلت تركيّا الحرب إلى جانب ألمانيا، صادرت السلطات التركيّة جميع الأراضي التابعة للشركة باعتبارها مُلْكًا للعدوّ (الفرنسيّ). وبعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى وتقاسُم الدول الاستعماريّة ممتلكات الدولة العثمانيّة، عادت شركة "إيكا" للاهتمام بأملاكها في المناطق السوريّة. عارض الفلّاحون العرب ذلك باعتبارهم أصحاب الأرض، وكذلك عارضت سلطات الانتداب الفرنسيّة أيضًا شراء اليهود للعقارات المختلفة وامتلاكها في فلسطين أو الجولان، خشيةً من ردّة الفعل العربيّة أوّلًا، أي من قِبل الفلّاحين، وثانيًا رأت فرنسا أنّ سماحها لليهود بتملّك الأرض في فلسطين من شأنه أن يطوّر العلاقات الحسنة التي كانت قائمة أصلًا بين بريطانيا والحركة الصهيونيّة ممّا يمكّن بريطانيا أن تحظى بنفوذٍ ما في المنطقة (في حين كان التوتّر بين دولتَي الانتداب -الفرنسيّ والبريطانيّ- سيّد الموقف).

محاولة الاستيطان اليهوديّة الثالثة لهذه الحقبة (والأخيرة من حيث توافر المعلومات حولها) كانت في منطقة البطيحة، قرب شاطئ بحيرة طبريّا الشماليّ - الشرقيّ. ففي عيد العُرُش اليهوديّ عام 1904، استوطن نحو عشرين يهوديًّا كانوا مزارعين أَجيرين لدى "عبد الرحمن يوسف بك"، الكرديّ الأصل، في أراضي البطيحة (التي كانت ملْكًا له). أراد "يوسف بك" لليهود أن يستوطنوا هناك، ظنًّا منه أنّه من خلال عملهم الشاقّ وإقامتهم في الأرض واستصلاحها سيتمكّن من جَنْي الأرباح. في المقابل، كان هؤلاء اليهود الأجيرون مزارعين في روسيا، وأرادوا فعلًا الاستيطان بالقرب من المَزارع التي عملوا فيها، ولكن على الرغم من التحذيرات التي وصلتهم بشأن مَخاطر السكن بالقرب من المناطق الرطبة، أصيبوا بمرض الملاريا الذي قضى على جميعهم، ومع هذه الحادثة انتهت محاولة الاستيطان (المصدر السابق، ص 104).

16. وهي شركة أسّسها البارون موريس هيرش، في تسعينيّات القرن التاسع عشر، ابتغاءَ مساعدة توطين اليهود اللاجئين من الإمبراطوريّة الروسيّة في مناطق في أمريكا والأرجنتين. وفي سبيل تمكين اليهود من الهجرة، أقامت الشركة مدارس زراعيّة ومكاتب استخباراتيّة. تعمل اليوم الشركة بالأساس في مشاريع استيطانيّة لتكثيف اليهود في كلّ من الجليل والنقب في مشاريع في مجالات كالتربية والزراعة والسياحة. في مطلع القرن العشرين، وبعد فرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين في الحرب العالميّة الأولى، كثّف البارون روتشيلد مساعي الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها، ولذلك عمل على استبدال الشراكة مع "إيكا" بشركة حملت اسم "بيكا": PICA – Palestine Jewish Colonization Association.

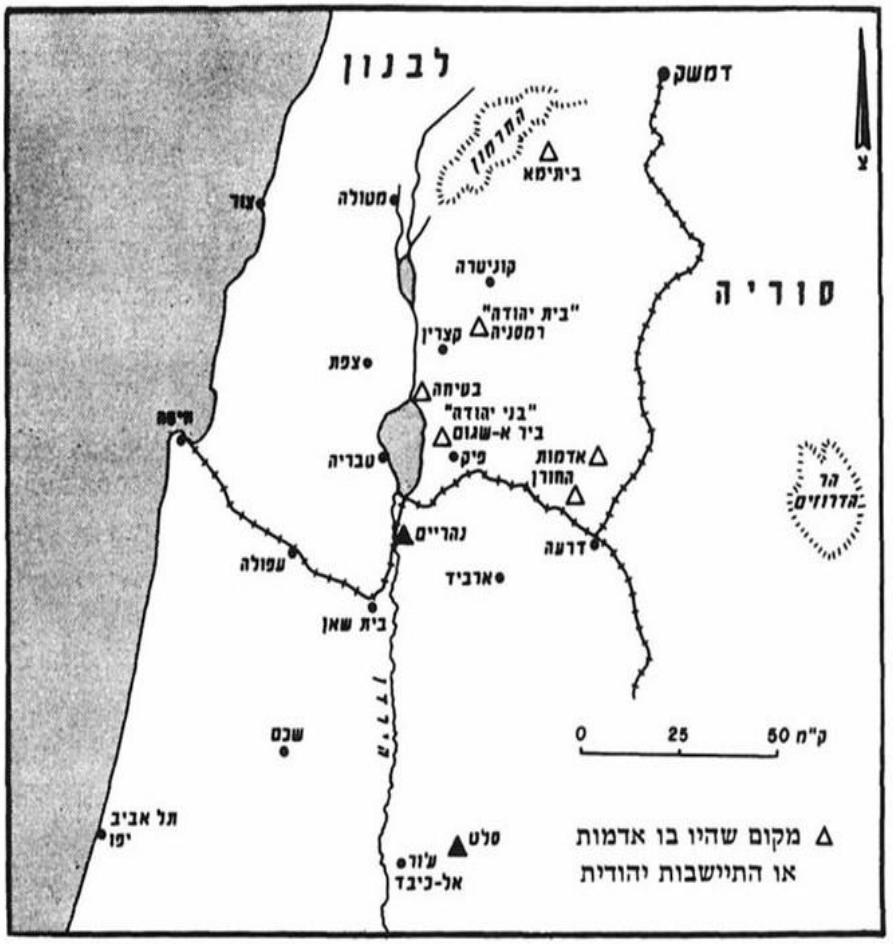

מפת הישובים היהודיים בגולן

الرسم التوضيحيّ 3 – المثلّثات باللون الأبيض في الصورة أعلاه: النقاط المركزيّة التي استوطن فيها اليهود في الجولان، وهي حوران، بير شكوم، البطيحة، والرمثانيّة (عنبار وشيلر، 1985).

الخاتمة: من حماية اليهود إلى حماية الدولة اليهوديّة

على الرغم من عدم نجاح المحاولات الاستيطانيّة الآنف ذكرها على البقاء على نحوٍ تامّ وثابت في المنطقة، فإنّها شكّلت بداية تأسيسيّة مُهمّة للرؤية الاستيطانيّة اليهوديّة في الجولان. فكما رأينا، جاءت هذه المحاولات بعد مراحل من الأنشطة والبحث والإنتاج المعرفيّ والمخيال الاستعماريّ لفلسطين وجزء من بلاد الشام (يهوديًّا وصهيونيًّا)، إضافة إلى التقاطعات بين المصالح الدينيّة والأيديولوجيّة والسياسيّة، محلّيًّا ودوليًّا، لرابطات وصناديق (بل كذلك شركات مهنيّة وسياحيّة خاصّة) شكّلت فرصة ثمينة لاعتبار الجولان جزءًا من مشروع الاستيطان الصهيونيّ وتشكيل معرفة ورؤيا توراتيّة بشأنه. كذلك وفّرت المحاولات الاستيطانيّة الأولى للجماعات اليهوديّة في الجولان إضفاءَ نوع من "المصداقيّة" وَ "الواقعيّة" على المخيال الاستيطانيّ للجولان الذي تَصوَّرَه اليهود أوّلًا، والصهيونيّة الاستعماريّة لاحقًا. المقصود أنّه على الرغم من فشل هذه المحاولات في بداية الأمر، للأسباب المختلفة التي تطرّقنا إليها، فإنّها ساعدت في رسم وتوضيح معالم وحدود جغرافيا الجولان في الخطاب الصهيونيّ الرسميّ مطلع القرن العشرين. فالمحاولة الثالثة للاستيطان، كما ذكرنا أعلاه، انتهت في مطلع القرن العشرين، وفي هذه الأثناء، كانت الحركة الصهيونيّة آخذة في التوسّع وكسب الأصداء في أرجاء العالم، وكانت قد نجحت في ذاك الحين في إقناع بريطانيا بتبنّي مشروعها للاحتلال وإصدار وعد بلفور في الثاني من شباط عام 1917. سعت الحركة إلى توسيع مساحة الانتداب البريطانيّ، وركّزت في هذا المجال على عاملَي الماء والأرض كضرورة حياتيّة لقيام المشروع الصهيونيّ، وراحت تضغط لإدخال نهر الأردن وكامل حوضه ضمن حدود الانتداب. وكما يظهر في مذكّرة المنظّمة الصهيونيّة العالميّة، نشرت الحركة الصهيونيّة في مؤتمر الصلح الذي عُقِدَ في باريس في الثالث من شباط عام 1919 مجموعة خرائط تضمّ علنيًّا مناطق الجولان وحوران ضمن ما أسمته "أرض إسرائيل" (انظروا الرسم التوضيحيّ 1). ما كان لهذه الخرائط أن تضمّ الجولان في تصوُّرها "لأرض إسرائيل الكبرى" في هذه المرحلة تحديدًا من النشاط الصهيونيّ، لو لم تسبقها مساعٍ استيطانيّة ومعرفيّة عدّة للمنطقة على مدار قَرن من الزمن.

في كتاب الباحثة نادية أبو الحاجّ، "وقائع على الأرض: مزاولة علم الآثار وادّعاءات تملُّك الأرض في المجتمع الإسرائيليّ"، والذي أصبح اليوم من الأدبيّات الكلاسيكيّة في العلوم الإنسانيّة بشأن الموضوع، ناقشَت الدَّوْرَ الذي مارسه علم الآثار في صياغة ماضٍ يهوديّ متخيَّل قائم على فرضيّات، ومن ثَمّ في تشكُّل وبَلْوَرة المجتمع الاستيطانيّ الصهيونيّ ومَنْحه نوعًا من الثبات (2001). من خلال ادّعائها، تذكّرنا أبو الحاجّ بأنّه علينا أن نرفض التعامل مع الصهيونيّة كمشروع قوميّ هو في ذات الوقت مشروع استعماريّ، وبدلًا من ذلك ينبغي أن نُصِرّ على مَوْضَعَته ضمن التاريخ الأوسع للأمّة الاستيطانيّة (Settler-nationhood).

فبالفعل، تعود جذور الصهيونيّة إلى القوميّات العرقيّة في وسط وشرق أوروبا. لكنّها كانت دومًا استعماريّة (استيطانيّة). فما الذي دفع اليهود الأوروبيّين إلى التخيّل أنّ لديهم الحقّ في الاستيطان في فلسطين؟ أليس المخيال الصهيونيّ لفلسطين على أنّها أرض خالية هو مخيال استعماريّ في الصميم؟ ومن خلال أيّ هياكل للقوّة (الاستعماريّة) تمكّنت الحركة الصهيونيّة من تحقيق أو تفعيل رؤيتها للوطن اليهوديّ؟ تقول أبو الحاجّ: "ما يميّز الصهيونيّةَ أنّها كانت أمّة استيطانيّة منذ البداية: أي أنّها كانت مشروعًا استيطانيًّا استعماريًّا صوّر نفسه على أنّه مشروع عودة وطنيّة" (Abu El-Haj, 2001, p. 95). في الحالة الصهيونيّة، لم يقتصر الأمر على غياب مساحة أيديولوجيّة بين ما هو وطنيّ وما هو استعمار استيطانيّ فحسب، بل تجاوزه إلى غياب مساحة زمنيّة بين الاثنين. ما حاولتُ عرضه في الفصل أعلاه لا يقتصر على تشابك التاريخيّ الدينيّ والاستيطانيّ في جغرافيا الجولان، بل يتضمّن كذلك اعتماد كلّ منهما على الآخر وإسهامه في تأسيسه.

لم يكتمل توثيق تاريخ الجولان، بما فيه سرديّة تأسيسه يهوديًّا واستعماره عسكريًّا، بعد. فمن يقرأ هذا الفصل، سيلحظ غيابًا تامًّا للصوت والحدث المحلّيّ الأصلانيّ في الجولان بأشكاله وأجناسه المتعدّدة. كيف كانت أشكال الحياة في هذه الحقبة من التاريخ؟ كيف استقبل الجولانيّون (إن صحّ التعبير) كلًّا من شوماخر وأوليفانت، على سبيل المثال، أو أين كانوا وماذا فعلوا خلال زيارة مونتِفيوري وزوجته؟ كيف صاغ الجولانيّون علاقاتهم مع يهود منطقة صفد، وكيف كانت ردود فعلهم على حضورهم المتكرّر؟ جميعها أسئلة مُلِحّة. سيكون من الضروريّ كذلك تتبُّع السياسات والمحاولات التي عملت وَفقها الحركة الصهيونيّة في الجولان منذ مؤتمر الصلح في باريس (1919) حتّى سنوات النكبة وما بعدها (بما يشمل مرحلة ما بعد الانتداب البريطانيّ على فلسطين ووقوع الجولان كما كلّ سوريا تحت الانتداب الفرنسيّ). فهنالك حتّى اليوم حاجة بحثيّة إلى تتبُّع الخطاب الصهيونيّ حول مكانة الجولان في الدولة اليهوديّة، وكذلك تتبُّع الروابط بين مبرّراتِ الاستيطان الصهيونيّ في الجولان بعد احتلاله عام 1967، وتاريخِ المحاولات الاستيطانيّة اليهوديّة التي سبقت ذلك. وبصدد الجولان على وجه التحديد، يبقى من المهمّ الإشارة إلى أنّه بعد إنشاء الدولة الاستعماريّة الإسرائيليّة لا يزال الخطاب السائد بشأن الجولان هو ضرورته وحيويّته الوجوديّة في خلق منطقة حدوديّة عازلة (Buffer zone) بغية "حماية اليهود من المحيط العربيّ العدوّ". فالجولان اليوم، كما صاغته بعض الأدبيّات الإسرائيليّة والخطاب الصهيونيّ العامّ، هو بمثابة "عيون الدولة الإسرائيليّة" (رام، 2011)، أي إنّ مفهوم "الحماية" -وَ"حماية اليهود" تحديدًا- لا زال مكوِّنًا أساسيًّا في الممارسة الصهيونيّة، ولربّما على نحوٍ مختلف عمّا كان عليه في مطلع القرن التاسع عشر، بحيث إنّه تحوّل من "حماية اليهود في فلسطين" (كما صاغه مونتِفيوري سابقًا) إلى "حماية الدولة اليهوديّة في الشرق الأوسط" (كما صاغه بن چوريون وغيره من طلائعيّي الحركة الصهيونيّة).

المَراجع

باغ، أديب. (1983). **الجولان: دراسة في الجغرافيا الإقليميّة** (ترجمة د. يوسف خوري وآخرين). دمشق: منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب. (نُشِر العمل الأصلي 1958)

خلف، تيسير. (2006). **استكشاف الجولان 1805-1880، مغامرون، جواسيس، وقساوسة**. التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.

راز-كرَاكوتسكين، أمنون. (2014). المنفى، التاريخ، وقومنة الذاكرة اليهوديّة: تأمّلات في "العودة إلى التاريخ" كفكرة صهيونيّة. **قضايا إسرائيليّة**، 54. رام الله: مدار. ص 75-97.

رام، موريئيل. (2011). عيون الأمّة: جبل حرمون في الخطاب الصهيونيّ للأرض بعد 1973. **نظريّة ونقد** ("تِئورْيا أُفِكورِت")، مجلّد 38. ص 35-64.

شهوان، أسماء راتب معروف. (2010). **الاستيطان الصهيونيّ في هضبة الجولان السوريّة (1967-2000)، دراسة تاريخيّة تحليليّة**. [دراسة ماجستير، كليّة الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنيّة في نابلس].

عنبار، موشيه؛ وشيلر، إيلي (محرّران). (1985). هضبة الجولان: مئة عام من المحاولات الاستيطانيّة في الجولان. **مجلّة أريئيل**، العددان 50-51. [بالعبريّة]

قعقور، ابتسام. (2003). **قضيّة شراء الأراضي والاستيطان الصهيونيّ في الأردن وحوران والجولان 1871-1947**. دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينيّة، عمّان، الأردن.

الكيّالي، عبد الوهّاب. (1990). **تاريخ فلسطين الحديث** (الطبعة العاشرة). المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر.

كيپنيس، يچئال. (2004). الخريطة الاستيطانيّة للجولان عشيّة حرب الأيّام الستّة. **كاتيدرا**، 116. ص 117-146. [بالعبريّة]

كيوان، مأمون؛ والأسدي، عبده. (1996). **قضيّة الجولان: هضبة الإشكاليّات وفجوات الحلول المحتملة**. دار النمير.

المسيري، عبد الوهاب. (2005). **موسوعة اليهود واليهوديّة الصهيونيّة**. مجلّد 2. القاهرة: دار الشروق.

نايشطط، مُردخاي. (1969). **الجولان**. معراخوت. [بالعبريّة]

Abu El-Haj, Nadia. (2001). **Facts on the ground: Archaeological practice and territorial self-fashioning in Israeli society**. University of Chicago Press.

Abujaber, Raouf, Sa'd, & Cobbing, Felicity. (2005). **Beyond the river: Ottoman Transjordan in original photographs**. London: Interlink.

Anderson, Benedict. (1991). **Imagined communities**: **Reflections on the origin and spread of nationalism**. Verso Books.

Besant, Walter. (1895). **Thirty years work in the Holy land: A record and summary, 1865-1895**. London: A. P. Watt and Son.

Bidwell (F.O.) to Young. (1839, 31 January). F.O. 78/368 (no. 2).

Christopher, Emma; Pybus, Cassandra, & Rediker, Marcus. (2007). Introduction. In Christopher, Emma; Pybus, Cassandra, & Rediker, Marcus (Eds.). **Many middle passages: Forced migration and the making of the modern world** (pp. 1-19). Berkeley, CA, University of California Press.

Cobbing, Felicity. (2012). Thomas Cook and the Palestine exploration fund. **Public Archaeology**, 11(4). Pp. 179-194.

Friedman, Isaiah. (1968). Lord Palmerston and the protection of Jews in Palestine 1839-1851. **Jewish Social Studies**, 30(1). Pp. 23-41.

Henderson, Philip. (1956). **The life of Laurence Oliphant: Traveller, diplomat and mystic**. London: Robert Hale.

Loewe, Louis. (1890). **Diaries of Sir Moses and Lady Montefiore**. Chicago: Belford-Clarke Co.

Luke, Harry C. (Ed.). (1924). **Cook's traveller's handbook for Palestine and Syria**. London: Simkin Marshall, Hamilton, Kent & Co.

Mitchell, Timothy. (2002). **Rule of experts: Egypt, techno-politics, modernity**. University of California Press.

Oliphant, Laurence. (1881). **The land of Gilead**. London.

Palestine Exploration Fund (PEF). (1865–69). Report of the proceedings at a public meeting held in the Willis's rooms, St James's, on Friday 22 June 1865. **Palestine Exploration Fund Proceedings and Notes**. London: Palestine Exploration Fund.

Palestine Exploration Fund (PEF). (1885–86). **Quarterly Statement**. Volumes 17 & 18. London.

Palestine Exploration Fund (PEF). (2020, February 19). **Gottlieb Schumacher**. Retrieved September 25, 2020, from https://www.pef.org.uk/profiles/gottlieb-schumacher.

Raz-Krakotzkin, Amnon. (2013). Exile, history, and the nationalization of Jewish memory: Some reflections on the Zionist notion of history and return. **Journal of Levantine Studies**, 3(2). Pp. 37-70.

Rodinson, Maxime. (1973). **Israel: A colonial-settler state?** New York, Monad Press.

Roth, Cecil (Ed.). (1971). **Encyclopedia Judaica**. Vol. 16. Jerusalem, Keter Publishing

House.

Safran, Yair & Goren, Tamir. (2010). Ideas and plans to construct a railroad in northern Palestine in the late Ottoman period. **Middle Eastern Studies**, 46(5). Pp. 753-770.

Sayegh, Fayez. (1965). **Zionist colonization in Palestine**. Lebanon, Beirut: Palestine Liberation Organization's Research Center.

Schayegh, Cyrus. (2014). On Scales and spaces: Reading Gottlieb Schumacher's the Jaulan (1888). In Kozma, Liat; Schayegh, Cyrus, & Wishnitzer, Avner (Eds.). **A Global Middle East: Mobility, materiality and culture in the modern age, 1880-1940** (pp. 19-48). New York: Bloomsbury.

Schumacher, Gottlieb. (1888). **The Jaulân: Surveyed for the German society for the exploration of the holy land.** R. Bentley and son.

Tessler, Mark. (1994). **A history of the Israeli-Palestinian conflict**. Indiana University Press.

Veracini, Lorenzo. (2010). **Settler colonialism: A theoretical overview**. Palgrave Macmillan, UK.

Verete, Meir. (1970). Why was a British consulate established in Jerusalem? **The English Historical Review**, 85(335). Pp. 316-345. (Original work published 1961)

Wolfe, Patrick. (2012). Purchase by other means: The Palestine Nakba and Zionism's conquest of economics. **Settler Colonial Studies**, 2(1). Pp. 135-136.

يأتي هذا الكتاب حصيلةً للمشروع الذي بادر إليه مدى الكرمل، والذي جمع من خلاله كوكبةً من الأكاديميّين والمحاضرين وطلبة دراسات عليا فلسطينيّين يدرسون في جميع أنحاء فلسطين ضمن ثلاث ورشات دراسيّة امتدّت كلّ منها على مدار سنة. جمَعَ هؤلاء الباحثين الانشغالُ السياسيُّ والأكاديميُّ في فهم الصهيونيّة بوصفها مشروع استعمار استيطانيّ، وفي بحث آليّات هذا المشروع وفرضيّاته وأُسُسه الفكريّة والدينيّة والسياسيّة. كذلك ناقشت الورشات التحوّلات التي مرّ ويمرّ فيها المشروع الصهيونيّ جرّاء فشله، منذ بداياته الأولى، في إخضاع المقاومة الفلسطينيّة المستمرّة على جميع أشكالها.

يأتي كُتّاب وكاتبات المقالات من حقول معرفيّة مختلفة، ويعيشون سياقات جغرافيّة وسياسيّة وقانونيّة وأكاديميّة مختلفة. قارَبَ بعض الكتّاب الصهيونيّةَ ومشروعَها الاستعماريَّ مقارَبةً تاريخيّة، بينما قرأها آخَرون من زاوية ممارساتها على من يعيش في ظلّ منظومتها إمّا داخل أرضه، وإمّا مهجَّرًا داخل بلده، أو خارجها. بعض المقالات بحثت في مقاومة المشروع، أو في الوعي المقاوِم لهذا المشروع. وقد عُنِيَ بعضها الآخَر بتحليل المنظومة نفسها، واشتباك بُعدها الاستعماريّ الاستيطانيّ مع البعدَيْن الدينيّ والقوميّ أو الإنتاج المعرفيّ حولها من قِبل مؤسَّستها الأكاديميّة أو مقاوميها. وقد قرأتْ بعضُ المقالات هذا المشروعَ قراءةً مقارِنةً مع سياقات عربيّة أو عالميّة أخرى.

يُسهم الكتاب في النقاش الدائر حول مكان دراسات الاستعمار الاستيطانيّ في فهم طبيعة الدولة الإسرائيليّة، وفي تطوير إستراتيجيّات فلسطينيّة للتحرُّر على ضوء هذا الفهم.

مدى الكرمل – المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، هو مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تأسست عام 2000 في مدينة حيفا. يهتم مدى الكرمل بالتنمية البشرية والقومية في المجتمع، ويهدف إلى تشجيع البحث التطبيقي والنظري حول الفلسطينيين في إسرائيل. ويركز مدى الكرمل على سياسة الحكومة والاحتياجات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل وعلى الهوية القومية والمواطنة الديمقراطية. ويسعى المركز إلى توفير قاعدة مؤسساتية ومناخ فكري لدراسة احتياجات الفلسطينيين في إسرائيل ومستقبلهم الجماعي وعلاقتهم بإسرائيل وبباقي أجزاء الشعب الفلسطيني والعالم العربي. كما يسعى إلى تدريب جيل جديد من علماء الاجتماع والسياسة الفلسطينيين على توجهات نقدية في الدراسات الفلسطينية والإسرائيلية.

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari
ISBN: 978-965-7308-28-8